محمد متولى الشعراوى

صلاة الخاشعين

دار الروضة للنشر والتوزيع

دار الروضة



رقم الإيداع :٧٨٤٤/٢٠٠٤

(بسم الله الرحمن الرحيم)

مقدمة

ليس هناك أجمل من لحظات يقف فيها العبد بين يدى ربه ومولاه ، وليس فى العمر أسعد من قيام وسجود للخالق العظيم فى صلاة عرَّفنا بها الله كيف نعبده .

على الإنسان العابد أن يستشعر معانى كثيرة ، وهو واقف بين يدى خالقه ، يناجيه ، ويُقرُّ له بعجزه وتقصيره ، تائباً نائباً إليه سبحانه ، رافعاً أكف الضراعة بطلب الغفران ، عسى أن يتقبَّله الله فى عباده الصالحين .

يقف العبد الخاشع أمام ربه حافى القدمين ، صَافّاً كَعْبيه إلى بعضهما ، مُطْمئن الجوارح ، قد سكنتْ وذلَّتْ وخضعتْ للديَّان ، قد أعطى للدنيا ظهره .

وهو ما بين الركوع والسجود يحنى جبهته وصُلْبه إلى الله ، معفراً جبهته بالتراب الذى منه خُلق ، واضعاً أنفه على الأرض أمام سيِّده ، أنفه تلك - رمز العزة والأَنَفة والكرامة - قد أذلَّها العبد لله.

وإذا كان الله عز وجل قد مدح الخاشعين فى صلاتهم فى كتابه العزيز ، فقال سبحانه :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) ﴾ (المؤمنون)

فذلك لأنهم يستشعرون ويعيشون فى كل لحظة من لحظات صلاتهم معنى الوقوف بين يدى الله ، معنى الركوع لجلاله ، والسجود لعظمته ، تمتلىء جوانحهم بأحاسيس الإيمان والإسلام والإذعان لله ، يستشعرون نعمة هداية الله لهم للإيمان فيحمدونه عز وجل أن هداهم له ، ووفَّقهم ليكونوا عبيداً له سبحانه .

يستشعرون فى صلاتهم معنى الطهارة والنقاء ، معنى الخضوع والإخْبات ،

يـدركـون حق الإدراك أنهم فى مُـهْلـة قبـل أن يفاجـئـهم المـوت بقـوته عليـهـم وسطـوته على أعمـارهم ، فلا يستـطيعوا أن يقـفوا هذه الوقفـة بين يدى ربهم مرة أخرى ، فيُصلُّون صلاة مُودِّع .

يصلون صلاة مَنْ يُودِّع الدنيا بزخـارفها ونعيمـها ، بطعامها وشرابهـا ، بنوْمها وراحـتهـا بجاههـا وسلطانهـا ، يُودِّع كل ما كـان له فيـها من مـال وأولاد ومركـز ومَنْصب .

وإذا به يقف وحيداً فريداً أمام خالقه ، إلا من قلب مطمئن بالإيمان ، وعمل صالح قـد سبق منه ، وخوف مـن اللحظة التى ستنتهى فـيها الـصلاة ، فينتـقل بها لحياة أخرى ، لا يعرف ما الله فاعل به فيها.

لذلك فأهمُّ أمـر يجب أن يتحقق فى صلاة العـبد هو أن يجمع شتـات نفسه ، وأن يُحضـر قلبه فى صـلاته ، فلا تشـغله الشواغل حـوله ، ولا يسرح بخـاطره فى شـئون دنيـاه وحيـاته ، ليس لئلا تبطل أو يـقلّ ثوابه فى صلاته ، بل حـتى لا يكون مُسيئاً إلى ربِّه وخالقه بالالتفات إلى غيره وهو بين يديه .

لجنة التراث

بـ « دار الروضة »

العبودية ومَعِيَّة الله

العبودية هى أرْقى مراتب القُرْب من الله تعالى ؛ لأنك تأتى إلى الله طائعاً ، مُنفِّذًا للمنهج باختيارك .

ولقد عُرِض على رسول الله ﷺ أن يكون مَلَكًا رسولاً ، أو عبدًا رسولاً ، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً .

فمصدر الشرف للإنسان أن يُحسَّ ويشعر بتجلِّى الله عليه بعبوديته له ؛ لأن « العبودية » عطاء عُلْوىّ من الله .

والإيمان كله عزة ، والناس تكره كلمة « عبودية » ؛ لأن عبودية البشر للبشر فيها ذِلّة ، وفيها أن السيد يأخذ خير عبده .

أما العبودية لله فنجد أن العبد يأخذ خَيْر سيده ؛ ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى قد امتنَّ على نبيه بصفة العبودية ، فقال :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. (١) ﴾ . (الإسراء)

فقد أخلص ﷺ العبودية لله ، فأخذ من فيوضات الحق بما يناسب عبوديته .

والحق سبحانه يوضح لكل عبد :

نَمْ ملءَ جَفْنيك ، فأنا لا تأخذني سِنَة [1] ولا نوم ، وأنا قيوم [2] ، وإن احتجت منى إلى شيء ما ، فَادْعُنى ، وسأمدُّ لك يد العَوْن بما يناسبك .

فهل فى هذه العبودية لله شيء غير العزة ؟

إنك إن كبَّرْت الحق سبحانه وتعالى أعززتَ نفسك ، فسجودك وعبوديتك لواحد عافاك من أن تسجد لألوف الأقوياء فى الأرض .

واعلم أنك إن التجأتَ إليه سبحانه ، وكنت فى معيته ، كنت أكبر من غيرك ، ولا يستطيع أحد أن ينالك بسوء ؛ لأنك فى مَعيَّة الله ، ومَنْ كان الله معه فلا يحزن .

ولكن الذى يشْرُدُ من معية الله هو الذى يتعب .

فالحق سبحانه يريد منَّا أن نخلص النية فى الالتحام بمعية الله تعالى ، ليُضْفى علينا ربنا سبحانه من صفات جلاله وصفات جماله .

وانظروا إلى سيدنا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى الغار .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. (٤٠) ﴾ (التوبة)

---

(١) السنة : النعاس من غير نوم . والسنة : نعاس يبدأ فى الرأس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم . [لسان العرب - مادة : وسن] .

(٢) القيوم والقيامُ فى صفة الله تعالى وأسماء الله الحسنى : القائم بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم ، قال قتادة : القيوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم . [اللسان] .

أى : أن رسول الله ﷺ ينهى صاحبه عن الحزن بعلة معيَّة الله سبحانه وتعالى ، ولا بُدَّ أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قد قال كلاماً يفيد الحزن ؛ لأن الحزن لم يَأْت له من تلْقاء نفسه ، بل من قانون كونىّ ، حين قال لرسول الله ﷺ : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا » .

لكن رسول الله ﷺ لا يتكلم عن القانون الكونى ، لكنه يتكلم عن طلاقة قدرة المكوِّن سبحانه ، فقال :

« ما ظنك باثنين الله ثالثهما » [1].

فمعيَّة الله أضفتْ عليهما شيئاً من جلاله وجماله ، والله سبحانه لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

والحق سبحانه يطلب منك أن تواجه الحياة فى معية الله ، فأنت لو واجهت المشكلات فى معية مَنْ تثق فى قوته تواجه الأمور بشجاعة ، فما بالك إذا كنتَ فى معية الله ، وكل شىء فى الوجود خاضع لله ، أيجرؤ شىء أنْ يقف أمامك وأنت مع الله ؟

الله تعالى يقول :

﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ (البقرة)

وما دام الله مع الصابرين فلا بُدَّ أن نعشق الصبر .

وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟

والعبادة كلها طاعة تتمثل فى تطبيق ما جاء به المنهج من « افعل »

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبي بكر رضى الله عنه .

و « لا تفعل » ، وقد يتدخل المنهج فى حريتك قليلاً ، وأنت بقوة الإيمان تعتبر أن هذا التدخُّل فى هذه الحرية نعمة يجب أن تحمد الله عليها ؛ لأنه لو تركك على هواك ، فستفشل .

إذن : الأوامر والنواهى هنا نعمة ، يجب أن نحمد ربنا عليها ، وكل ما يُجريه الله على العبد المؤمن يجب أن يأخذه العبد على أساس أنه نعمة .

فحين تعرف أن العبادة أوصلتْك إلى أمر ثقيل على نفسك ، فاعرف أن هذا لمصلحتك ، وعليك أن تحمد الله عليه ، وبذلك يدخل المؤمن فى زُمْرة الحامدين .

وأنت حين تؤمن بالله ، يصبح الله فى بالك ، فلا يشغلك شىء عنه سبحانه .

فالعبادة خضوع لله سبحانه وتعالى بمنهجه « افعل » و « لا تفعل » ، ولذلك جعل الصلاة أساس العبادة ، والسجود هو منتهى الخضوع لله ؛ لأنك تأتى بوجهك الذى هو أكرم شيء فيك وتضعه على الأرض عند موضع القدم .

فيكون هذا هو مُنْتهى الخضوع لله ، ويتم هذا أمام الناس جميعاً فى الصلاة ؛ لإعلان خضوعك لله أمام البشر جميعاً .

الصلاة هى إدامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى ، وهى أيضاً استحضارُ العبدِ وقفتَه بين يَدَيْ ربه .

فالله سبحانه يريد منّا الولاء دائماً ، فإذا كنت تعتز بالله فأنت تُديم الولاء له باستمرار الصلاة ، وأنت حين تسجد لله وتتذلل له ، فإنه سبحانه يزيدك عزةً ويكون معك دائماً ، ويَقيك ذُلَّ الدنيا .

❊ ❊ ❊

الصلاة لجوء إلى الله إذا ضاقت الأسباب

فالوقوف فى الصلاة أمام الحقِّ سبحانه يُعطى الإنسان القوة ؛ لتحمُّل الأمر الثقيل ، فما دام هناك ثقل فلا بُدَّ أن تزيد الطاعة .

ولذلك كان الرسول ﷺ « كلما حزبه [١] أمر فزع إلى الصلاة » [٢] .

لأن حَزْب الأمر معناه أن أسبابه ضاقتْ عنه ، وحين تضيق الأسباب لا بُدَّ من اللجوء إلى المسبِّب .

فإذا ضاقت بك الأسباب ، فلم تجد مَخْرجاً ولا طريقاً إلا أن تلجأ إلى الله ، فتوضأ وصَلِّ ركعتين غير الفريضة ، ثم ادع بما شئْتَ ، فيفرج الله كَرْبك .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً من قصة زكريا عليه السلام ، حينما دعا ربَّه فقال :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) ﴾

(آل عمران)

---

(١) حزبه أمر : أصابه . أى : إذا نزل به مهم أو أصابه غم ونابه واشتد عليه . والأمر الحازب : الشديد . [اللسان].

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩)عن حذيفة ابن اليمان رضى الله عنه.

حينئذ :

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً [1] وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)﴾

(آل عمران)

لقد نادتْه الملائكة فى أورع لقاءاته مع ربه ، أو هو حينما دعا ربه قد أخذ ما علَّمه الله للأنبياء إذا حزبهم أمر ، قاموا إلى الصلاة .

إذن : فليقف بين يدي الله ، وَلْيُجرِّبها كلُّ واحد منّا ، عندما يصعب عليه أيُّ شيء ، وتتأزم الأمور ، وتمتنع الأسباب ، فَلْيقُمْ ويتوضأ وضوءاً جديداً ، ويبدأ بالنيـة حتى ولو كان متوضئاً ، وليقفْ بين يدى الله ، وليقُلْ : إنه أمر يارب عزَّ عليَّ فى أسبابك . وَلْيُصَلِّ بخشوع .

وأنا أجزم بأن الإنسان ما إن يُسلِّم من هذه الصلاة ، إلا ويكون الفرج قد جاء .

أَلَمْ نتلَقَّ عن رسول الله ﷺ هذا السلوك البديع ؟

فقد كان كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة .

فكان ﷺ إذا ضاقت به الأسباب ، كان يذهب إلى الصلاة ، لخالق الأسباب ، إنها ذهاب إلى المسبِّب .

---

(١) الحصور : الذى لا يأتى النساء . وقال ابن الأعرابى : هو الذى لا يشتهى النساء ولا يقربهن . [لسان العرب - مادة : حصر] .

فبدلاً من أن تلفّ وتدور حول نفسك ، اذهب إلى الله من أقصر الطرق وهو الصلاة .

لماذا تُتعب نفسك أيها العبد ، ولك رَبٌّ حكيم ؟

إن مَنْ له أب لا يحمل هَماً ، والذى له رب أليس أوْلَى بالاطمئنان ؟

إن زكريا عليه السلام قد دعا الله فى الأمر الذى حزبه ، وبمجرد أن دعا ، قام إلى الصلاة ، فنادتْه الملائكة ، وهو قائم يصلى .

إن الملائكة لم تنتظر إلى أن ينتهى من صلاته .

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى (٣٩)﴾ (آل عمران)

ولذلك فإن رسول الله ﷺ يُعلِّمنا أنه إذا أتعبنا أمر وأرهقنا أن لا نقصر رؤيتنا على رأينا وحده ، ولكن لنلجأ إلى الله ، فنهزم الأمر الذى يحزبنا ولا نقدر عليه ، بأن نقيم مع الله حِزْباً بالصلاة .

إننا عندما نأخذ من سنة رسول الله المثل والقدوة ، نعرف أن رسول الله ﷺ لم يكن يحزبه أمر يتعلق بدنياه ، وإنما أمر يتعلق بمنهج الله وبالدين .

لذلك يذهب رسول الله ﷺ إلى مَنْ يعطيه ، ويعطى أهل الإيمان كل الطاقة ، إنه يذهب إلى الصلاة ، ويعلن أن أسبابه قد انتهت ، ولم يَعُدْ يَقْوى على تحمُّل هذا الأمر الذى حَزَبه .

ولأن الحق سبحانه لا يغلبه شيء ، فإنه تعالى يرفع الهمَّ عن رسوله ﷺ ، ويغلب كل أمر صَعْب ، وإنْ حَزَبنا هذا الأمر فى نفوسنا فسنجد العجب .

إذن : فحين تعزُّ الأسباب على المؤمن فى أمر ما ، ويكون قد أعطى كل جهده ، ولكن هذا الأمر ما زال يحزب المؤمن ويشتد عليه ويرهقه ، فعلى المؤمن أن يقوم إلى الصلاة ، فيُيسِّر الحق سبحانه هذا الأمر للمؤمن بالخير .

والمؤمن عندما يحزبه أمر ما إنما يذهب بالصلاة إلى المسبِّب وهو الله ، ولكن على المسلم ألاَّ يذهب إلى الله إلا بعد أن يستنفد كل الأسباب .

فالأسباب إنما هى يد الله الممدودة ، ولا يمكن للمؤمن أن يرفض يد الله .

فحين يقف المؤمن بين يدى الله ويصلى ، يمتلئ بالرضا والتوازن النفسى .

إذن : فساعة يأتينا أمر شديد ، لا بُدَّ أن نتجه إلى الله عز وجل ، وأفضل مكان نلتجئ فيه إلى الله تعالى هو بيته .

فقد كان ﷺ إذا كانت ليلة ريح شديدة كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح ، وإذا حدث فى السماء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى تنجلى [1] .

---

(١) أورده الهيثمى فى المجمع (٢/ ٢١١) وعزاه للطبرانى فى الكبير من رواية زياد بن صخر عن أبى الدرداء ، ثم قال : « لم أجد من ترجمه ، وبقية رجاله ثقات » .

وبعض من الذين يحترفون الجدل واللجاجة يقولون :

ماذا سيفعل الله لى ، أو لذلك الذى يُعانى من شيء فوق طاقته ، لقد دخل المسجد وخرج كما هو ؟

ونقول : هذا الظاهر مـن الأمر ، ولكنك لا تعرف مـاذا حدث فى داخله ، أنت تتحدث عن العـالم المادى الذى فيه العلاجات المادية ، ولكن الله سبحانه وتعـالى يعـالج مـا فى داخل النفس دون أن تُـحسّ أنت ؛ لأن أنوار الله تدخل القلوب فتجعلها تطمئن وتدخل النفوس ، فتجعلها تُحسّ بالرضا والأمن .

فـأنـت أيُّهـا الإنسـان إذا أصـــابك أىُّ شيء من هَمٍّ أو كَــرْب أو ظروف معـيشة ، أو مـرض ابنك ، أو أصابك أىُّ شيء عليك أن تتـوضأ وتتـوجه إلى خالقك بالصلاة ، والدعاء أن يكشف عنك هذا الأمر .

فهو ســبحانه الأقدر على ذلـك من أىِّ أحد ، فهو خالقك وواضع قانون صيانتك ، وهو الأقدر على إصلاح حالك .

والحق سبـحانه يُصلحـنا بالغيب ، فـلا تعرف ماذا فـعل بك وأنت واقفٌ أمامه تُصلى ، لكنك تشعر بلا شك أن شيئاً فيك قد انصلح .

لذلك كان ﷺ يقول لبلال : « أرحنا بها يا بلال » [1] .

ولم يَقُلْ كما يقول بعض الناس - والعياذ بالله - أرحنا منها .

---

(١) أخرجه الإمام أحـمد فى مسنده (٥ / ٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم . قاله أحمد واللفظ له .

ذلك أن هناك مَنْ يقـول لك : إن الصـلاة تكون علـى كتـفى مـثل الجـبل وأرتاح .

نقـول له : أنت ترتاح بهـا ، ولا ترتاح منهـا ؛ لأنك وقـفتَ بين يدى الله ، وما دام الإنسان واقفاً أمام ربِّه فكُلُّ أمر شاق يصبح سهلاً .

يقول أحـد العــابدين : أنا لا أواجه الله بعبوديتى ، ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح ؛ لأنه ربى وربّ العالمين .

ويقول أحد الصالحين فى دعائه : اللهم إنى أسألك ألا تَكلنى إلى نفسى ، فـإنى أخـشى يا رب ألا تشيينى عـلى الطاعـة ، لأننى أصبـحتُ أشـتـهيـهـا ، فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا .

انظر إلى الطاعة من كثرة حُبِّ الله أصبحتْ مرغوبة مُحبّبة إلى النفس .

فالمؤمن يرتاح عندما يُؤدِّى الصلاة ، فهو عـشق الطاعة بحيث لم يَعُدْ يجد فيـها مـشقة أو تكليـفاً ، لذلك تجـد المؤمن خائفـاً ، وكأنه قد فـهم أنه لا بُدَّ أَنْ توجد مشقة .

ولمثل هذا الإنسان الصالح نقول :

لقد فقدتَ الإحساس بمشقة التكليف ؛ لأنك عـشقته ، فألفتَ العبادة كما أَلِفَتْكَ وعشقتك ، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة .

وهذا غيـر ما يقوله بعض مـمَّنْ يؤدون الصلاة الآن ، حيث يقـول الواحد منهم : هيا نُصلى لنزيحها من على ظهورنا .

هؤلاء يؤدّونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق .

أما الذين أَلِفُوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشتد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم .

يقول الواحد منهم : ما دامت الصـلاة تُريح القلب ، فلأذهب إليها وألقى ربى زائداً على أمر تكليفه لى متقرباً إليه بالنوافل .

إذن : فـعـشْق التكليف شـيء يدل على أنك ذُقْتَ حـلاوة الطاعـة ، وقـد يجوز أنه شاقٌّ عليك ؛ لأنه يُخرجك أولاً عمَّا أَلِفْتَ من الاعتياد .

فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول : إن هذه المشقة إنما يريد الله بها لى حُسْن الجـزاء ، فإذا مـا عشقْتَ الصـــلاة صارتْ حـباً لك ، فَيُخـفف الله عليك أمور التكليف ، ويجعلك عاشقاً لها .

لأن التكليف ينتقل من المتـعة إلى الراحة ، ويتمـتع الإنسان فيها بـتجليات ربه وفيوضاته ، فترتاح نفسه وتهدأ .

* * *

هؤلاء هم المحسنون

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [١٥] ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ [١٦] كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ [(١)] [١٧] وَبِالأَسْحَارِ [(٢)] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [١٨] ﴾ (الذاريات)

الإحسان أن تفعل شيئاً فوق ما افترضه الله ، ولكن من جنس ما افترضه الله ، والمحسن الذى يدخل فى مقام الإحسان ، هو من يعبد الله كأنه يراه ، فإنْ لم يكن يراه فهو سبحانه وتعالى يرى كل خلقه.

فالرؤية الإيمانية هى أن تؤمن كأنك ترى ما هو غيب أمامك ، وتكون من هذه الرؤية أكثر يقيناً من رؤية العين ، لأنها رؤية إيمان ورؤية بصيرة.

وقول رسول الله ﷺ حينما سأله جبريل عن الإحسان :

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع من غير نوم . والتهجاع : النومة الخفيفة . والهجيع : الطائفة من الليل . [لسان العرب - مادة :هجع] .

(٢) السَّحَر : آخر الليل قبيل الصبح . والجمع : أسحار . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر . وهو وقت يُرجى فيه إجابة الدعاء . [لسان العرب - مادة : سحر] .

« أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1]

هو بيان للرؤية الإيمانية فى النفس المؤمنة ، فالإنسان حين يؤمن، لا بد أن يأخذ كل قضاياه برؤية إيمانية ، حتى إذا قرأ آية عن الجنة فكأنه يرى أهل الجنة وهم يُنعَّمون ، وإذا قرأ آية عن أهل النار اقشعر بدنه ، وكأنه يرى أهل النار وهم يُعذَّبون.

عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مَر برسول الله ﷺ ، فقال له : كيف أصبحتَ يا حارث؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقاً.

قال: انظر ما تقول ، فإن لكل شىء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك؟

فقال: عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى، وأظمأت نهارى ، وكأنِّى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنِّى أنظر إلى أهل النار يتضاغون[2] فيها.

فقال ﷺ : « يا حارث ، عرفت فالزم، عرفت فالزم ، عرفت فالزم »[3]

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو يعرف بحديث جبريل الطويل لأن رسول الله ﷺ قال فى آخره : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

(٢) الضَّغاء : صوت الذليل إذا شُق عليه . والتضاغي : الصياح والبكاء . [لسان العرب - مادة : ضغاء]

(٣) حديث حارثة أورده ابن حبان فى المجروحين (١/ ١٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه. وفيه : أحمد بن الحسن بن أبان المصرى . وفيه : أن رسول الله ﷺ قال :« من أحب أن ينظر إلى عبد قد نوَّر الإيمان فى قلبه فلينظر إلى حارثة » .

ولنا العبرة فى سيدنا حذيفـة - رضى الله عنه - حينما سأله رسول الله ﷺ فقال له : كيف أصبحت؟

أى : كيف حالك الإيمانى؟

قال حذيفة: يا رسول الله ، عزفتْ نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها ومَدَرُها [1]، وكأنِّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّـمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون٠

أى: أن الذهب تساوى مع الحصى٠

فالإنـسان من أهل الصـلاح يعرف أنه فى لقـاء دائم مع الله ، لذلك يضع برنامجاً لنفسه موجزه أنه يعلم أنه لا يخلو من نظر الله إليه٠

يقول تعالى:

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) ﴾ (الحديد)

إنه يستحضر أنه لا يغيب عن الله طرفة عين ، فيستحى أن يعصيه٠

وعندما تتيقَّن أن الله ينظر إليك ، فكيف تعصيه؟

أنت لا تجرؤ أن تفعل ذلك مع عبد مُسَاوٍ لك ، فكيف تفعله مع الله؟!

ونحن نعرف أن من حسن العبادة فى الإسلام ، ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلاً ، وصلاة التهجـد ، وهذه فى مدارج العملية الإيمانية التى يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .

---

(١) المدر : قطع الطين اليابس المتحجر . [لسان العرب - مادة : مدر]

فهناك مؤمن يـقرأ القرآن فى وقت من الليل ، ومؤمن آخـر يقرأ القرآن فى وقت آخر ، وكأن المؤمنين يقطعون الليل كله فى قراءة القرآن٠

والذى يدخل مع ربه فـى مقـام الإحـسـان ، فـهـو لا يصلى فـقط صـلاة العتمة[١]، وهى ستأخـذ «إنىً» واحداً ، أى: وقتاً واحـداً ، ولكنه عندما يصلى فى آناء الليل فذلك دليل أنه يُكرِّر الصلاة ، وزاد عن المفترض عليه٠

ومـا دام زاد عن المفتـرض ، فـهو لايـكتفى بتـلاوة القـرآن ؛ لأنه يريد أن يدخل فى مقام الإحسان٠

أى: أنه وجد ربه أهلاً لأن يصلى لـه أكثر مما افتُـرض عليه ، كأنه قـد قال لنفسه: أنت كلَّفتنى يا رب بخمس صلوات ، لكنك يا رب تستحق أكثر من ذلك٠

فمعنى « مـحسن » أنه وَصْفٌ للإنسان الذى آمن بربه ، فعبـد الله بأكثر مما افتُرِض٠

تعبَّدنا الله بخمس صلوات ، فنزيدها لتصل إلى عشرين مثْلاً ٠

وتعبَّدنا الله بصيام شهر فى العام ، ومنا من يصوم فى كل شهر عدداً من الأيام٠

وتعبَّدنا الله بالزكاة بالنصاب[٢]، ومنا من يزيد على النصاب ٠

---

(١) العتـمة : ثلث الـليل الأول بعد غـيبوبة الـشفق . وقيـل : هى وقت صلاة العـشاء الأخيرة . [اللسان – مادة : عتم] .

(٢) النصـاب : القدر الذي تجب فيـه الزكاة إذا بلغـه . فنصـاب المال :٨٥ جرامـاً من الذهب بسعر اليوم الذي تخرج فيه الزكاة إذا حال الحول على المال .

وتعبَّدنا لله بالحج مرة فى العمر ، ومنَّا من يزيد عدد مرات الحج .

فحين يريد العبد أن يدخل فى مقام الإحسان ، فبابه هو أداء عبادات من جنس ما تعبَّده الله به ، فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التى يعبد بها الله ، ولكنه يزيد فيما افترضه الله.

وهذه دقة البيان القرآنى التى تُوضِّح مقام الإحسان ، فيكون فى مالهم حق للسائل والمحروم ، وليس هناك قدر معلوم للمال الذى يخرج ، لأن المقام هنا مقام الإحسان الذى يعلو مقام الإيمان.

ومقام الإيمان - بالنسبة للزكاة مثلاً - قد جاء ذكره فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِم حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) ﴾ . (المعارج)

فالإنسان فى مقام الإيمان قد يقيِّد الإخراج من ماله بحدود الزكاة ، أو فوقها قليلاً ، لكن فى مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال.

ومثل هذا أيضاً ، فقد كلَّف الله المسلم بالصلاة ، وأعلمه بأنه حُر بعد صلاة العشاء ، وله الحق أن ينام إلى الفجر ، فإن سمع أذان الفجر فليقم إلى صلاة الفجر.

لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه ، فيزيد من صلواته فى الليل.

ويضيف الحق سبحانه مُذكِّراً لنا بصفات المحسنين :

﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ (الذاريات)

أكلَّف الله الخلق بأن يستغفروا بالأسحار؟

لا. بل إن الرسول يجيب على رجل سأله عن الفروض الأساسية المطلوبة منه، فذكر له أركان الإســـلام ، ومن بينها الصـلوات الخمس المكـتوبة ، فقال الرجل : « والله لا أزيد على هذا ولا أنقص » ٠

فقال ﷺ : «أفلح إنْ صدق»[1]

وبذلك دخل هذا الأعرابى فى نطاق المفلحين٠

إذن: فالذى يزيد على هذا يُدْخله الله فى نطاق المحسنين٠

فالإحسان ، هو أن تفعل فـوق ما كلفك الله مُسْتشعـراً أنه يراك ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك ، فترتضى التكليف ، وتزيد على ما كلفك٠

فـيكون قـد أدخلك الله فـى مـقـام الإحـسـان ، لأنك حـين جَـرَّبْتَ أداء الفرائض ذُقْتَ حلاوتها ، وعلمتَ أن الله يستحق منك أكثر مما كلَّفك به٠

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦) وكذا مسلم فى صحيحه (١١) من حديث طلحة بن عبيد الله أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ، ثائر الرأس ، نسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول ، حتى دنا من رسول الله ﷺ ، فإذا هو يسأل عن الإسلام .. فقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » فقال : هل علىّ غيرهن ؟ قال : «لا . إلا أن تطوع وصيام شهر رمضان » فقال : هل علىّ غيره ؟ فقال : « لا إلا أن تطوع » وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة . فقال : هل علىّ غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » . قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ : « أفلح إن صدق » .

ولذلك فبعض الصالحين فى أحد سُبُحاته قال:

« اللهم . إنى أخشى ألا تثيبنى على الطاعة ، لأننى أصبحتُ أشتهيها »

أى: صارت شهوة نفسى ، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة ، فيقول: يا رب ، إنى أصبحت أحبها ، ومفروض منا أن نمنع شهوات أنفسنا ، لكنها أصبحت شهوة ، فماذا أفعل؟

إذن: فهذا الرجل قد دخل فى مقام الإحسان ، واطمأنت نفسه ، ورضيت ، وأصبح هواه تبعاً لما أمر به الله ورَضِيه ٠

ولذلك يجب أن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن المتقين ، قال :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ (الذاريات)

لماذا هم مُحْسنون يا ربِّ ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)﴾ (الذاريات)

وهل كلَّفنى الله ألاَّ أهجع إلاَّ قليلاً من الليل ؟

لا ، إن التكليف أن يصلى الإنسان العشاء من أول الليل ، وينام حتى الفجر ، لكن أن تحلو للمؤمن العبادة ، ويزداد الإيمان فى القلب والجوارح ،

ويأنس العبد بالقرب من الله ، فالحق لا يردُّ مثل هذا العبد ، بل إنه يستقبله ويُدخله فى مقام الإحسان ٠

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) ﴾

(الأنعام)

فالأعمال تتفاوت ، فقد تكون فى ظاهرها قوالب متحدة ، لكن التفاوت إنما ينشأ بكثرة العمل ، أو بإخلاص المقارف[1] للعمل ، والمكتسب ، والفاعل له٠

فهناك مَنْ يُخلص بكل طاقته ، وهناك مَنْ يؤدى عمله بنصف إخلاص٠

ومسألة الإخلاص هذه لا تحددها لوائح ولا قوانين ، إنما يحددها الحق سبحانه وتعالى٠

ولذلك يقول محمد ﷺ مُبلِّغاً عن رب العزة هذا الحديث القدسى :

« الإخلاص سرٌّ من سرِّى ، استودعته قلب مَنْ أحببتُ من عبادى »

إذن: فمقاييس الإخلاص لا يعرفها إلا ربنا سبحانه وتعالى ، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات ، فالدرجات تكون على مقدار ما يزيده العبد من جنس ما فرضه الله عز وجل عليه٠

والذى يقف عند ما فرض الله يجازيه الله على إخلاصه فى أداء ما عليه ، فالذى يزيد عما فرض الله من جنس ما فرض الله أشد فلاحاً ٠

(١) الاقتراف : الاكتساب . ومقارفة الذنب : مدانانه وملاصقته . والمقارفة : المخالطة . [اللسان] .

ولا يصل الإنسان إلى المرتبة التى هى أشدُّ فلاحاً ، إلا إذا كان فى درجة أعلى٠

والزيادة على ما فرضه الله ، ومن جنس ما فُرِض لها مَلْحظان :

الأول : أن العبد يشهد لربه بالرحمة ، لأنه كَلَّف دون ما يستحق٠

الثانى : أن عمل الطاعة قد خُفِّف على المؤمن فاستراح بها٠

ألم يَقُلْ رسول الله ﷺ عن الصلاة : «أرحنا بها يا بلال»[(١)]

وربُّ العزة سبحانه يقول فى الحديث القدسى:

«ما تقرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضتُه عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل [(٢)]حتى أحبه ، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجْله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » [(٣)] .

إن الحق سبحانه يضع مسئولية القرب من الله فى يد الخلق ، ويُسلِّم المؤمن مفتاح القرب من الله ، فمَنْ يكُنْ من أصحاب الخلق الملتزمين بالمنهج يُقرِّبه الله منه أكثر فأكثر٠

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥ / ٣٦٤) ، وأبو داود في سننه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم . قاله أحمد واللفظ له .

(٢) النوافل : جمع نافلة ، وهو ما يفعله الإنسان مما لا يجب عليه . والتنفل : التطوع . [اللسان – مادة : نفل] .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة . وأخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٢٥٦) من حديث عائشة رضى الله عنها .

إذن: فمن الناس من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ويدق على باب الحق ، فينفتح له الباب ، ومن الناس من يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً ٠

ولله المثَل الأعلى: أنت كواحد من البشر قد يدقُّ بابك إنسان يحتاج إلى لُقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه٠

فما بالُنا بعطاء الحق سبحانه لعباده؟

إذن : فمنهم من يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله٠

وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، هنا يكون العبد فى معيَّة الله ، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً٠

والحق سبحانه يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه ، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضاً خمس مرات فى اليوم ، وترك سبحانه الباب مفتوحاً لتطوعك ، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدى الله إلا فعلتَ ٠

فقد يرى الواحد من عباد الله أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله تعالى ، فيزيد من جنسها على ما فرض الله ، ويصلى - بدلاً من خمسة فروض - عشرة أخرى نوافل ، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين ، أو يصوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ٠

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى ، وأن الله يستحق أكثر من ذلك ، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل فى مقام الودِّ مع الله تعالى ٠

ونحن حين ندخل فى مقام الودِّ والإحسان مع الله ونصلى فى الليل، ونكون بارزين إلى السماء ، فلا يفصلنا شىء عنها ، وننظر فنجد نجوماً لامعة تحت السماء الدنيا ، وأهل السماء ينظرون للأرض فيجدون مثلما نجد من النجوم المتلألئة اللامعة فى الأرض ، ويسألون عنها ، فيقال لهم :

إنها البيوت التى يصلى أهلها آناء الليل وهم يسجدون ، وكل بيت فيه هذا يضىء كالنجوم لأهل السماء ٠

* * *



يقول الحق سبحانه :

﴿ إنَّ فى خَلْقِ السَّمَاوات وَالأَرْضِ واخْتِلاف اللَّيلِ وَالنَّهَارِ .. إلى قوله .. لآيات لقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ .. (البقرة)

فالحق سبحانه يعطينا العبرة فى اختلاف الليل والنهار ، ومعنى اختلافهما أن كلاً منهما يأتى خلف الآخر ، النهار يأتى خلف الليل ، والليل يأتى خلف النهار .

فاختلاف الليل والنهار يعنى ألاَّ يكون النهار سرمداً ، أى دائماً لا ينقطع ، ولا يكون الليل كذلك سرمداً .

إذن : فأنت أيها المتحرك فى الكون ينطبق عليك ما ينطبق على كُلِّ متحرك ؛ لا بُدَّ لك من سكون بقدر حركتك .

ولذلك انقسم الزمان إلى ليل تسكن فيه ، وإلى نهار تتحرك فيه .

يقول تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً[1] وَالنَّوْمَ سُبَاتاً (٤٧) ﴾ ..

(الفرقان)

(١) لباساً : يعنى ستراً للخلق مقام اللباس في ستر البدن . قاله القرطبى في تفسيره (٧/ ٤٩١٥)

أى : جعل النوم سكناً لكم ، وقَطْعاً لأعمالكم ، وراحة لأبدانكم .

ويعلم سبحانه أزلاً أنه لا يمكن أن يكون الليل - أى وقت الراحة - سباتاً [1] لكل الناس ، بل لا بُدَّ من أُناس يقومون بأمور تقتضى اليقظة بالليل .

ولهؤلاء يقول سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣) ﴾.. [الروم]

إنه يعطى فرصة لهؤلاء الذين تظل عيونهم ساهرة طوال الليل ، ليستريحوا بالنهار .

إذن : فمن عظمة الحق سبحانه أنه جعل الزمان خِلْفة ، فلو كان الليل سرمداً والنهار سرمداً لفسدت الحياة .

يقول تعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَداً [2] إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ (القصص)

(١) سباتاً : أى راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال . وقال الخليل : السبات نوم ثقيل . أى : جعلنا نومكم ثقيلاً ، ليكمل الإجمام والراحة . قاله القرطبى فى تفسيره (٧/ ٤٩١٥) .

(٢) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [اللسان - مادة : سرمد]

أى : أن أحداً لن يستطيع الحركة فى مثل هذا الليل السرمدى ، ولا أحد سيتبين شيئاً .

فالليل له مهمة ، والنهار له مهمة ، فإياكم أن تخلطوا المهمات فى بعضها ، فالفساد إنما يأتى من اختلاط المهمات .

فنحن رأينا بعض الناس بعد انتشار الكهرباء والتليفزيون والفيديو يسهرون طوال الليل ، وبعد ذلك يقومون فى الصباح بادية عليهم مظاهر السهر والإرهاق .

والواحد منهم يغالبه النوم فى وقت عمله ، فلا يستطيع أن يُؤدِّيه كما ينبغى .

فالليل بعد أن كان للسكون والراحة أصبح للسهر والتسلية ، على حساب العمل بالنهار .

فالله تعالى يُعدِّد لنا النعم التى لا يستطيع أحد غيره أن يأتى بها ، ومنها الليل والنهار .

أى : لو صارت الحياة كلها ليلاً مستمراً إلى يوم القيامة مَنْ غير الله يستطيع أن يأتيكم بضياء .

وكلمة « سرمد » معناها : دائم .

فكأن الحق سبحانه يقول لنا : أخبرونى إنْ جعل الله عليكم الليل مستمراً إلى يوم القيامة ، مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء.

وانظروا إلى دقة التعبير القرآنى فى كلمة (بضياء)٠

لم يَقُلْ : يأتيكم بنور . لأن النور قد يأتى من النجوم ، وقد يأتى من القمر ، لكنه يريد الضياء ، لأن الضياء نور فيه حرارة ، وفيه أشعة تنفع الحيا· والأحياء٠

ولذلك قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُوراً..(٥)﴾ (يونس)

ولو نظرتَ إلى المعنى السطحى فى الشمس والقمر لَقُلْت: إن الشمس تعطى نوراً ، وكذلك القمر٠

ولكن النظرة الأعمق تتطلب منك أن تُفرِّق بين الاثنين ، فالشمس تعطى ضياء ، والقمر يعطى نوراً ، والفرق بين الضياء والنور يتمثل فى أن الضياء تصحبه الحرارة والدفء ، والنور إنارة حليمة٠

ولذلك يُسمَّى نور القمر « النور الحليم » ، فلا تحتاج إلى الظل لتستظل من حرارته ، لكن الشمس تحتاج إلى مظلة لتقيك حرارتها٠

إذن: فالنور هو ضوء ليس فيه حرارة ، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتياً من المضىء مثل الشمس ، أما القمر فضوؤه غير ذاتى ، ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فهو مثل المرآة حين تُسلَّط عليها بعضاً من الضوء ، فهى تعكسه٠

إذن: القمر مضىء بغيره ، أما الشمس فهى تضىء بذاتها٠

لذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُوراً.. (٥) ﴾ (يونس)

وقال فى آية أخرى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَآءِ بُرُوجاً [1] وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً (٦١) ﴾ (الفرقان)

والسراج هو ما يعطى الضوء والحرارة ، وهو وَصْف مناسب للشمس ، فالشمس هى التى فيها حرارة ، أما القمر فله منازل ، وهو منير بضوء غيره·

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُواْ لله الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)﴾ (فصلت)

والآيات الكونية تعتبر مُفسِّرة للآيات القرآنية ، فتفصيل الآيات فى الكون ما نراه من تعددها أشكالاً وألواناً وحكَماً وغايات ، وتفصيل الآيات فى القرآن هو ما ينبهنا إليه الحق سبحانه فى قرآنه ·

وليلفت النظر إلى أن ذلك التفصيل فى آيات الكون ، وذلك الخلق العجيب الحكيم الذى لا يمكن أن يكون إلا لإله قادر حكيم يستحق أن يكون إلهاً موحداً ، ويستحق أن يكون إلهاً معبوداً ·

(١) البرج : واحد من بروج الفلك ، وهى اثنى عشر برجاً ، كل برج منها منزلتان .
[راجع : لسان العرب - مادة : برج] .

والآية هى الشىء العجيب ، وهى تشمل آيات القرآن ، لأنك حين تنظر إلى نظم آيات القرآن ، وإلى استيعابها حقائق الوجود ، واستيفائها لقضايا الكون كله تقول لنفسك :

هذا شىء عجيب .

لأن الذى جاءت على لسانه هذه الآيات نبىٌّ أمّى ، ما عُرِف عنه أنه زاول تعلُّماً ، وما جرَّبوا عليه أنه قال شعراً ، أو نثراً ، أو له رياضة فى الكلام.

ويجب أن تلفتنا هذه الآيات إلى أن لهذا الكون خالقاً مستحقاً وحده لأنْ يكون إلهاً ، فنحن نعيش الليل والنهار ، ونتنفس الهواء ، ونستمتع بدفء الشمس ، ونروى أراضينا بماء أنزله الله من السماء ، ووجدنا كوناً مرتباً منظماً ، يعطى للإنسان قبل أن يكون للإنسان إدراك أو طاقة.

فالآيات الكونية مهمتها أن تلفت المخلوق إلى جمال صُنْع الخالق ، وأنه إله يستحق أن نؤمن به ، فنعرف بالآيات الكونية أن وراء الكون قوة خلقته ، وتمده بأسباب البقاء.

فهذه الآيات معطيات من الله فى الكون ، ولا بد أن نكون من أُولى الأبصار.

لأن الأمر الذى نتحدث عنه هو أمر مشهدى ، أمر محسوس ، فمن له عينان عليه أن يبصر بهما ، فإذا كان التفكير والتدبر ليس أمراً موهوباً لكل مخلوق من البشر ، فإن البصر موجود للغالبية من الناس.

كل منهم يستطيع أن يفتح عينيه ليرى هذا الأمر المشهدى.

والحق سبحانه يأمرنا أن ننظر ما فى السماوات والأرض ، فيقول :

﴿ قُلِ انْظُرُواْ مَاذَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.. (١٠١) ﴾ (يونس)

فالسماوات والأرض هما عالم المُلْك الذى تراه ، فترى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر، ومواعيد الخسوف الكلى أو الجزئى ، وتبهر بدقة المنظِّم الخالق سبحانه وتعالى ، بحيث لا تجد زحام مرور بين الكواكب ، يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما لنفاد وقوده.

بل الأمر كما قال الحق سبحانه:

﴿ لا الشَّمسُ يَنْبَغِى لَهَا أن تُدْرِك القَمَرَ ولا اللَّيلُ سَابِقُ النَّهارِ وكُلٌّ فى فَلَك[1] يَسْبَحُون (٤٠)﴾ (يس)

والليل ظُلمة ، والظلمة فيها سكون ، والسكون فيه فَقْد للأصوات المحيطة بك ، ويشبه نومك الذى تنامه بالليل الموت ، فهذه مثل :

﴿ وءَايَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْناهَا..(٣٣)﴾ (يس)

لماذا ؟

لأن الليل لما كان مقابلاً للنهار ، فإن السطحيين فى التفكير يجعلون كل

(١) الفلك : مدار النجوم . والجمع : أفلاك . قال الفراء : الفلك استدارة السماء . [اللسان – مادة :فلك].

تقابل تَضاداً ، فيقولون : الليل ضد النهار . وهو ليس بضده ، فهو متكامل معه ، أى : يكونان كمالاً واحداً.

لأن الليل جاء لنهدأ من حركة النهار ، حتى نستأنف نهاراً جديداً بنشاط.

إذن: فالليل مُتمِّم ، والنهار جاء ليستغل راحتك فى أن تتعب بالنهار ، فالاثنان متعاندان أم متعاضدان ؟

إنهما متعاضدان ، وكل شىء له مقابل إياك أن تنظر إليه على أنه ضد ، بل انظر إلى ضرورة وجوده.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) ﴾ (يس)

فالحق سبحانه حينما يخلق التقابل نُسمِّيه نحن التكامل والتساند لا التعاند ، والتعاضد لا التعارض ، حتى نفهم أن كل الأشياء موزونة بميزان إلهى دقيق .

وسَلْخُ النهار من الليل يؤكد هذا .

فالسلخ كشط الجلد عن الشاة ، ولكن ما العلاقة بين هذا وبين ضوء الليل والنهار ؟ .

نقول : الأصل فى الأشياء الظُّلمة ، ولا تذهب الظلمة إلا بمنير طارئ ، فالليل ظلمة ، ثم يأتى النهار يستر هذه الظلمة .

فكأن النهار حينما يأتى يستر الظلمة ، كما يستر جلد الشاة لحمها ، فإذا ما أراد الحق سبحانه أن يأتى الظلام يخلع الضوء ، أى : يسلخ جلد الضوء ، فيأتى الليل على طبيعته .

فالنهار كالجلد يغطى لحم الظلام ، فعندما نريد للظلام أن يأتى نخلع الغلاف الضوئى ، فيعود الظلام على حاله.

فالظلام هو انعدام النور ، لكن النور إيجابى يحتاج إلى آلة جديدة ، فلو تركتَه لحاله لكان مظلماً ، فإن أردت أن تجعله منيراً أتيت بآلة .

وهل هناك آلة للظلام ؟

لا ، لأنه متى غاب النور جاء الظلام .

إذن : فالظلام أمره عدمى ، يكون متى اختفت آلة الإنارة . فكأن الليل كان مجلَّداً ومغلفاً بالنهار ، والليل أسود ، والنهار فيه الضوء .

ونحن نعلم أن اللون الأسود ليس من ألوان الطيف ، وكذلك اللون الأبيض ليس من ألوان الطيف ، لأن ألوان الطيف : الأحمر ، البرتقالى ، الأصفر ، الأخضر ، الأزرق ، النيلى ، البنفسجى .

واللون الأسود يأخذ ألوان الطيف ويجعلها غير مرئية ؛ لأنك لا ترى الأشياء إلا إذا جاءت لك منها أشعة لعينيك .

واللون الأسود يمتص كل الأشعة التى تأتى عليه ، فلا يرتد إلى العين شعاع منها ، فتراه مظلماً .

أما اللون الأبيض فهو مزيج من ألوان متعددة ، إن مزجتَها مع بعضها يمكنك أن تصنع منها اللون الأبيض .

وهكذا نعرف أن الأبيض مثله مثل الأسود تماماً ، فالأسود يمتص الأشعة فلا يخرج منه شعاع لعينيك ، والأبيض يرد الأشعة ولا يخرج منه شعاع لعينيك .

فكأن الليل ثوب أسود يأتى عليه ثوب أبيض هو النهار ، فإذا جاء ميعاد الليل رُفِع الثوب الأبيض ، أو سُلِخ النور عن ظلمة الليل ، لتصبح الدنيا مليئة بظلام الليل ، وكأن النور هو الذى يطرأ على الظلمة فيكسوها بياضاً .

أى : أن الضوء هو الذى يأتى ويذهب ، بينما الظلمة موجودة ، فإذا جاءها ضوء الشمس صارت نهاراً ، وإذا انسلخ منها صارت ليلاً .

والشمس لا تدرك القمر ؛ لأنه سابق لها ، لكن الليل إياك أن تقول إنه يسبق النهار ؛ لأن هذه آية كونية .

فالليل لا يسبق النهار ، ولا النهار يسبق الليل .

فلو أن الأرض مسطوحة ، وخلق الله الشمس مواجهة للأرض لكان مجىء النهار هو الأول ، ثم تغيب الشمس فيأتى الليل بظلامه .

وإن كان الله قد خلق الشمس ليست مواجهة للأرض لكان الليل أولاً ، ثم جاء النهار .

ولم يكن هذا ولا ذاك ، بل إن الليل والنهار وُجِدا على الأرض فى وقت واحد ، وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة .

أى : ما واجه الشمس فهو نهار ، وفى نفس الوقت ما لم يواجهها فهو ليل ، فهما قد وُجِدا معاً .

إذن : لا الليل سابق النهار ، ولا النهار سابق الليل .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩)﴾

(لقمان)

وهذه آية أخرى من آيات الله فى الكون ، فإنه سبحانه لم يخلق النهار بمقدار معين من الساعات متشابه فى كل مرة .

لا ، إنه سبحانه شاء لليل أن ينقص أحياناً عن النهار خمس ساعات ، وأحياناً يزيد النهار على الليل خمس ساعات .

أى : أنه سبحانه يُدخِل الليل على النهار ، فيأخذ جزءً من النهار ليطول به زمن الليل ، ومرة يُدخِل النهار على الليل ، فيأخذ منه جزءاً ليطول به عنه .

ولذلك تجد الليل والنهار يختلف طول كل منهما من فصل إلى آخر ، ففى الصيف يطول النهار ، ويقصر الليل ، وفى الشتاء يقصر النهار ويطول الليل ، وهكذا .

ولنا أن نتساءل :

هل تنقص الخمس ساعات من الليل أو النهار مرة واحدة ، وفجأة ؟

هل يفاجئنا النهار بعد أن يكون اثنتى عشرة ساعة ، ليصبح سبع عشرة ساعة ؟

هل يكون الليل مفاجئاً لنا فى الطول أو القِصَر ؟

لا ، إن المسألة تأتى تباعاً ، بالدورة ، بحيث لا تحس ذلك ، فهناك نوع من الحركة اسمها « الحركة الترسية » .

إننا عندما ننظر إلى الساعة التى تدور نجد أن دورتها تعتمد على التروس ، فهل يمشى عقرب الساعة فى كل الزمن ؟

لا ، إن كل ترس له زمن يتوقف فيه ، وعندما يتوقف فإننا ندفع به ليعيد دورته ، ويعمل ، وإذا دققنا النظر فى عقرب الدقائق فإننا نستطيع أن نلحظ ذلك .

إذن : هناك فترة توقُّف وسكون بين انتقال عقرب الدقائق من دقيقة إلى أخرى ، وهذا اللون من الحركة نسميه «حركة ترسية » ، وهناك حركة أخرى ثانية نسميها «حركة انسيابية » ، بحيث يكون كل جزء من الزمن له حركة ، كما يحدث الأمر فى ظاهرة النمو بالنسبة للإنسان والنبات والحيوان .

فالواحد منكم إن نظر إلى ابنه الوليد ، وظل ناظراً له طوال العمر ، فلن يلحظ الإنسان منكم كِبَر ابنه على الإطلاق ، لكن عندما يغيب الإنسان عن ابنه شهراً أو شهوراً ، ثم يعود ، هنا يرى ابنه فى مجموع نمو الشهور التى غاب فيها عنه ، وقد أصبح واضحاً .

ولو زرع الإنسان نباتاً ما ، وجلس ينظر إلى هذا النبات ، فإنه لن يرى أبداً نمو هذا النبات ، لماذا ؟

لأن الجزئيات تكبر دون قدرة على أن يلمس الإنسان طريقة نموِّها .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ (٢٧) ﴾ (آل عمران)

هو لَفْتٌ للانتباه البشرى إلى أن الليل والنهار لا يفصل بينهما حد قاطع بنسبة متساوية لكل منهما .

لا .. إنه الحق بقدرته يُدخِل الليل فى النهار ، ويُدخِل النهار فى الليل .

إن معنى تُولج : تُدخِل .

والليل والنهار هما أوضح صور ظرف الزمان ، وفيهما اختلاف ، فالليل يأتى والنهار خلفه ، لأن النهار جعله الله ضياء ، للحركة والكدح والعمل، وجعل سبحانه الليل ظلاماً ، للسكون والراحة ، فإن لم ترتح بالليل ، فإنك لن تقوى على العمل فى الصباح.

وهكذا يكون الليل مُكمِّلاً للنهار ، لا مناقضاً له .

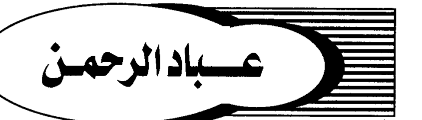
يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (٦٢) ﴾ (الفرقان)

فالليل خِلفة للنهار ، ومعنى خلفة. أى : يخلف غيره .

ومعنى ذلك أن كلاً منهما كان موجوداً من البدء ، ولأن الأرض تدور جاء النهار فى البلاد التى تشرق فيها الشمس ، وجاء الليل فى البلاد التى تغيب عنها الشمس ، وتتابع الليل والنهار .

❊ ❊ ❊



عباد الرحمن

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ[1] قَالُوا سَلاَماً (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً (٦٤) ﴾ (الفرقان)

فأوَّل صفة لعباد الرحمن أنهم يمشون على الأرض هوناً ، أى : بوقار ورِفْق ولين وسكون .

وقالوا : إن المشى الهون هو الذى يسير فيه الإنسان على سجيته بدون افتعال عظمة أو مشية معينة فى إعجاب بالنفس أو تكبُّر واختيال ، وبدون انكسار ، وذلة فى المشى أيضاً ، بل يمشى مشياً طبيعياً .

والصفة الذاتية يجب ألا يفتخر بها الإنسان إلا إذا كانت من ذاته ، والإنسان ليس عنده أى صفة ذاتية فيه حتى يختال ويتكبر بها ؛ لأنها كلها موهبة من الله .

فالمتكبر المختال إنسان مضروب على قلبه الحجاب ، فلم يلتفت إلى ربه الأعلى ، فهو يظن أنه أحسن من الناس كلهم ، ولكنه لو استحضر كبرياء ربه لاستحى أن يكون متكبراً .

(١) الجاهلون : السفهاء والذين تأخذهم الأنفة والغضب على الجهل .

فصفة عباد الرحمن فى ذواتهم أنهم يمشون على الأرض هونًا .

وصفتهم فى علاقاتهم بالناس قال عنها ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ وإذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ (الفرقان)

الجـاهلون هـم السُّـفهـاء ، والسـفـيه هو الذى لا يـزن الأمور ، ولا يعـقل كلامه ، ولا يضع كل كلمة موضعها ، فهو جاهل .

فهذا الجاهل السـفيه لا تكُنْ مثله ، وترد عليه بمثل قـوله ، فجواب ما يكره هو السكوت ، وإلا فلو سفهت عليه كما سفه عليك فقد صرت مثله تماماً .

فلا بد أن تُشْعِره بالفرق بينك وبينه .

ولكن ، إذا اشـتـدت سـفـاهتـه عليك وطغى وبغى ، فـيُبـاح لك أن ترد العدوان بمـثله ؛ لأنه قد يظن أن هذا السكوت ضـعف ، فعليك أن تبـين له أن هذا السكوت ليس ضعفاً ، ولكنه كرم خلق .

ومعنى : ﴿ وقَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ (الفرقان)

أى : سلام المتاركة ، فإذا جهل عليك إنسان وسبَّك بلسانه حلمت عليه ، وقلت له : أنا لن أرد عليك وتركته وانصرفت .

وسلام المتـاركة غير سـلام التحية الذى تلقـيه على من يقابلك حـين تبدأه بالسلام ، وقد يتحول سلام المتاركة أحيـاناً إلى سلام التحية للانصراف ، مثلما قال سـيدنا إبراهيم عليـه السلام لعمـه آزر بعد أن دعاه إلى الإسـلام فأبى ، ولم يقتنع فانصرف عنه ، وقال له :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ [1] سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيّاً (٤٧) ﴾ (مريم)

فَحَالُ عباد الرحمن فى ذواتهم أنهم يمشون على الأرض هَوْناً .

وحالهم مع الناس أنهم حين يخاطبهم الجاهلون يقولون لهم سلاماً .

وبعد ذلك يأتى حالهم مع ربهم ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً (٦٤) ﴾ (الفرقان)

فساعةَ يبيت الواحد منهم فى الليل يحاسب نفسه : ماذا قدَّم من عمل فى نهاره ؟

ويتذكر نعَم الله التى تجلت عليه فى ذلك اليوم ، وهى نعَم ليست ذاتية فيه ، ولكنها موهوبة من ربه ، فيشكر الله عليها ، ويبيت لربه ساجداً قائماً .

قال تعالى :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ [2] ءَانَآءَ اللَّيْلِ سَاجِداً و قَآئِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّه (٩) ﴾ (الزمر)

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٢٨٣) : « الجمهور على أن المراد بسلام المسالمة التى هى المتاركة لا التحية . قال الطبرى : معناه أمنة منى لك . وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام . وقال النقاش : حليم خاطب سفيهاً . وقال بعضهم فى معنى تسليمه : هو تحية مفارق . وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها » .

(٢) القنوت : الخشوع والإقرار بالعبودية . وقيل : الدعاء في الصلاة . فحقيقة القنوت : العبادة والدعاء لله عز وجل في حالة القيام . ويجوز أن يقع في سائر الطاعة ، لأنه إن لم يكن قيام بالرِّجْلين ، فهو قيام بالشيء بالنية . [لسان العرب مادة : قنت] .

وأَصْل القنوت فى اللغة هو المداومة على الشىء ، وقد حضً وحثً القرآن الكريم على ديمومة طاعة الله ، ولزوم الخشوع والخضوع .

فلا يستوى الذى يخشع لله فى أثناء الليل ، فيقضيه قائماً وساجداً يرجو رحمة ربه ، وذلك الذى يدعو ربه فى الضراء ، وينساه فى السراء .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُون إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٩) ﴾ . (الزمر)

أى : هل يستوى الذين يَعْلَمُونَ حقوق الله ، فيطيعوه ويوحدوه ، والذين لا يعلمون فيتركوا النظر والتبصر فى أدلة قدرات الله ؟

إن السبيل إلى أن يتذكر أولو الألباب هو تجديد الصلة به سبحانه ، والوقوف بين يديه مقيمين للصلاة .

وفى آية آخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ (الذاريات)

وهذا لا يعنى أن المسلم مُطَالب بأن يقوم الليل كله ، ولكن عليه إنْ أراد زيادة فى الخير وقرباً من الله أن يقوم جزءاً ، ولو قليلاً من الليل.

حتى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

« مَنْ صلى بعد العشاء ركعتين فأكثر كان قد بات لله ساجداً وقائماً » [1]

فالله يريد منك قبل أن تنام وتستريح أن تذكر الذى جعل لك الليل لباساً والنهار معاشاً ، وأنعم عليك كل هذه النعم ، فتشكره عليها ، ولو بصلاة ركعتين .

والحق سبحانه يقول عن محمد ﷺ وصحبه :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً . . (٢٩) ﴾ . (الفتح)

فَهُمْ فى ركوعهم وسجودهم إنما يُعبِّرون عن قيم الولاء لله.

والسجود أقوى سمات الخضوع فى الصلاة ، وما داموا يُصلُّون فلا بد أنهم يتلون آيات الله آناء الليل ، وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل .

* * *

ومن السُّنن المعروفة قراءة القرآن ليلاً ، وصلاة التهجد ، وهذه فى مدارج العملية الإيمانية التى يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .

وهناك مؤمن يقرأ القرآن فى وقت من الليل ، ومؤمن آخر يقرأ القرآن في وقت آخر ، وكأن المؤمنين يقطعون الليل في قراءة القرآن .

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٨/ ٥٨٨٣)عن ابن عباس من قوله :« من أحب أن يهوِّن الله عليه الوقوف يوم القيامة ، فليره الله في ظلمة الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه » .

فأهل المودة والقُرب والتقوى يُفاض عليهم من المولى سبحانه ، وهم ممَّنْ اختصَّهم الله بالعطاءات ، فـالذى وُجدتْ فيه هذه الصفات ، وكـان مؤمناً حقاً كانت له درجات عند ربه ، تناسب حظَّه من الحق وحظَّه من الصفاء .

ولنعرف أن السَّيْر في دَرْبِ الحق يُعطي الكثير .

والمثـال الذى نقدمـه على هذا : أننا نجـد مَنْ يصلى الأوقات الخـمسـة في مواعيدها ، وهذا هو المطلوب العام .

أما إذا مـا صلى ضِعْف ذلك بالليل ، أو واظب على الـصلاة فى الجمـاعة ويُلزم نفســه بمنهج الله ، فسوف يأخـذ حَظّاً من الصفاء لم يكن مـوجوداً عنده من قبل ذلك ، وسيجد فى قلبه إشراقات وتجليّات ، وتسير أمور حياته بسهولة ويُسْر .

❊ ❊ ❊



الصــلاة الخاشعـة

الصلاة هي استحـضار العبد وَقْفته بين يَدَيْ ربِّه ، وحـينما يقف العبد بين يدي الله ، لا بُدَّ أن يزول كُلُّ مـا في نفـسـه مـن كـبـرياء ، ويدخـل بدلاً منه الخشوع ، والخضوع والذلة لله سبحانه .

والمتكبِّـر غافل عن رؤية ربِّه الذى يقف أمـامه ، فَعـدم الإيمان بالنبى الذى فُـرِضَتْ عليـه وعلى أمـتـه الصـلاة ، وعـدم الوقـوف بين يدى الله للصـلاة له سبحانه كما يجب أن تُؤدَّى ، وكما فرضها الله تعالى من فوق سبع سماوات ، إنما هو رَفْضٌ للخضوع لأوامر الله .

والصلاة تحارب الاستكبار فى النفس ، لذلك كان مُؤدَّى الصلاة أنها تَرْكُز الخشوع فى النفس .

والخشوع يجـعل الإنسان يستحضـر عظمة الحق سبحـانه ، ويعرف ضآلة قيمته أمام الحق سبحانه ، ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون .

ويعلم أن كل مـا عـنده يمكن أن يذهب به الله تعـالى فى لحـظة ، ذلك أننا نعيش فى عالم الأغيار .

ولذلك فلنخضع للذى لا يتغيـر ؛ لأن كل ما يحصل عليه الإنسان هو من الله ، وليس من ذاته .

والذين يغـتـرُّون بوجود الأسـباب نقـول لهم : اعبـدوا واخشعـوا لواهب الأسباب وخالقها ؛ لأن الأسباب لا تعمل بذاتها .

والله سبحانه وتعالى يجعل الأيام دُوَلاً [1] ، أى : متداولة بين الناس ، إنسان يفاخر بقوته ، يأتي مَنْ هو أقوى منه فيهزمه .

إنسان يفاخر بماله ، يضيع هذا المال فى لحظة .

واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ [2] فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) ﴾ (آل عمران)

ولذلك لا بُدَّ أن نفهم أن الإنسان الذى يستعلى بالأسباب سيأتى وقتٌ لا تعطيه الأسباب ، فالإنسان إذا بلغ فى عينه وأعيُن الناس مرتبة الكمال اغترَّ بنفسه .

نقول له : لا تغترْ بكمالات نفسك ، فإنْ كانت موجودة الآن فستتغير غداً ، فالخشوع لا يكون إلا لله .

من هم الخاشعون ؟

الخاشع هو الطائع لله ، الممتنع عن المحرمات ، الصابر على الأقدار ، الذى

(١) دالت الأيام : دارت . والله يداولها بين الناس . وتداولته الأيدى : أخذته هذه مرة وهذه مرة. ودواليك من تداولوا الأمر بينهم يأخذ هذا دولة وهذا دولة . (لسان العرب - مادة : دول).

(٢) القَرْح والقُرْح : عض السلاح ونحوه مما يجرح الجسد ومما يخرج بالبدن . وقيل: الآثار ، والقرح الألم . وقال يعقوب : كأن القرح الجراحات بأعيانها، وكأن القرح ألمها . (لسان العرب - مادة : قرح)

يعلم يقيناً داخل نفسه أن الأمر لله وحده ، وليس لأيِّ قوة أخرى ، فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له .

الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب ، والمعصية بالعقاب والعذاب ؛ لأن الذى ينصرف عن الطاعة لمشقتها عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة ، والذى يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة .

وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحُبٍّ ، فيُهوِّنها الحق سبحانه عليه ، ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة ، لتهون عليه مشقتها ، ويمدُّه سبحانه أيضاً بالمعونة .

فالخاشع الخاضع لله يستشعر حلاوتها ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول عندما يحين موعد الصلاة : « أرحنا بها يا بلال » [1] .

والحق سبحانه يقول فى الصلاة ، وهى أُمُّ العبادة :

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ (البقرة)

إذن : عندما يأتى التكليف يكون شاقاً ، وما دام شاقاً فهو بحاجة لصلابة إيمان وجَلَد [2] ويقين ، بحيث يَعِى أن ما قام به من عمل وإنْ كان شاقاً لكنه سيعطيه سعادة كبيرة جداً .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥ / ٣٦٤ ، ٣٧١) ، وأبوداود فى سننه (٤ / ٢٩٦) طبعة دار الكتب العلمية . من حديث رجل من أسلم .

(٢) الجلد : القوة والشدة والصلابة والصبر . والتجلد : تكلف الجلادة . وتجلد : أظهر الجلد . (اللسان - مادة : جلد)

لذلك عندما تتضخم الجزاءات فى نفس المؤمن يُقبل على العمل بحُبٍّ .

لذلك يقول بعض العارفين : « اللهم إنى أخشى ألا تثيبنى على الطاعة ؛ لأنها أصبحت شهوة نفس » .

والحق سبحانه يقول :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هم فِى صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾

(المؤمنون)

فالفلاح هو الفَوْز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير ، وأول أسباب الفلاح عند المؤمن هو الخشوع فى الصلاة ، فمسألة أداء الصلاة شيء مفروغٌ منه ، لأن الصلاة علامة الإيمان .

أما أن تكون الصلاة سبباً من أسباب الفلاح ، فهذا يرجع إلى إقامتها لا أدائها ، إقامتها على الوجه الأكمل الذى يرضاه مَنْ تُصلِّى له ، ركوعاً وسجوداً وقياماً .

وكلمة « أفلح » مأخوذة من فلح الأرض ، فاعلموا يا مسلمين أنكم كما تُفلحون الأرض وتتعبون فيها ، فتأتى لكم بالخير الكثير ، فكذلك حين تتعبون فى العبادة وطاعة الله فى الدنيا ، ربنا يعطيكم خير الجزاء فى الآخرة .

وأوَّل ظاهرية الفَلاَح هى الصلاة أيضاً ، فعلاقة المؤمن بالصلاة ليس فيها كلام ، فليس مؤمناً مَنْ لا يصلى ، فالصلاة صفة لازمة من صفات المؤمن .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا أن فلاح المؤمن ليس فى أداء الصلاة فقط ، ولكن فى الخشوع فيها .

والخشوع هو سكينة القلب واطمئنانه ، واستحضار أنه واقفٌ بين يدى الله .

والخشوع معناه اطمئنانُ القلب ، ومعنى اطمئنان القلب سُكونه فى مهمته هذه ، فلا يشتغل بشىء آخر ؛ لأن الله ما جعل لرجل من قلبين فى جوفه .

يقول تعالى :

﴿ مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ .. (٤) ﴾ (الأحزاب)

وما دام فى حَضْرة ربِّه فَلْيَكُنْ كل شُغله مع الله .

حتى قال أحد العارفين :

إن الذى يتعمد أنْ يعـرف مَنْ على يمينه ومَنْ على شماله فى الصَّفِّ تبطل صلاته .

وسيدنا عمر رضى الله عنه حينمـا دخل المسجد ووجد رجلاً يصلى يعبث بلحيته ، ضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك [١] .

لأن الجوارح تستمدُّ طاقـتها من القلب الذى يمدُّها بالدم ، فلو كان القلب مشغولاً بشيء آخر لَذَهِل [٢] عن الجارحة .

(١) ذكر أبـو محمـد عبـد الحق هذا الأثر فى كـتاب « الصـلاة والتهـجد » (ص ١٨٩) بتحقيقى طبعة دار الوفاء - المنصـورة ، ولكن عزاه للحسن البصرى ، وذكر له أيضاً أن الحسن نظر يوماً إلى رجل يعبث بالحصـباء فى الصلاة وهو يقول : اللهم زوِّجنى من الحور العـين ، فقال له : بئس الخـاطب أنت ، تخطب الحور العـين وأنت تعبث بالحصباء .

(٢) الذهل : تركك الشيء تناسـاه على عمـد أو يشغلك عنه شـغل . (لسان الـعرب - مادة : ذهل) .

ولذلك عندما سُئل أحد العارفين عن حكم مَنْ يسهو فى الصلاة ، فقال له : عند الفقهاء يُجْبَر السهو فى الصلاة بسجود السهو ، ولكن عند العارفين مثلنا : مَنْ يسهو فى صلاته نقتله .

وهذا لأن الله تعالى يستحقُّ منَّا ألا ننشغل عنه فى فترة الصلاة القصيرة .

فالحق سبحانه يتركك أكثر من ٢٣ ساعة في اليوم ، ولا يأخذ منك وقت الصلوات الخمس أكثر من نصف الساعة ، وهى وقت الصلاة التى تقف فيها بين يدى الله سبحانه .

ففى هذا الوقت القصير الذى يستحضرك الله لصالحك حتى تكون فى جَلْوة مع ربك ، لتأخذ طاقة الإمداد والمعونة وإشراقات النور ، فتستكثر هذا الوقتَ القصير ، وتنشغل فيه عن ربِّك .

هذا لا يصحُّ ، ولا يجوز أبداً ، لذا كان الخشوع فى الصلاة من سمات الصالحين .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ[1] لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (١٠٩) ﴾ (الإسراء)

والأذقان جمع ذقن ، والذقن هو الفَكُّ الأسفل .

---

(١) خر لوجهه يخر خراً وخروراً : وقع وسقط . والخرور : سقوط من علو إلى أسفل بصوت . وخر ساجداً : أسرع إلى السجود . والتعبير كناية عن سرعة الاستجابة لله .

فساعة يخرون ليس على وجوههم فقط ، ولكن على الوجه والأنف والذقن أيضاً ، وهذا دليل على التمكُّن فى السجود .

﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (١٠٩) ﴾ (الإسراء)

أى : كلما سمعوا آيةً من القرآن ازدادوا خُشُوعاً وخشية لله .

وهؤلاء يقول عنهم رَبُّ العزّة سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ (الأنفال)

والوَجَل هو الخوف فى فزع ينشأ منه قشعريرة ، واضطراب فى القلب ، فذكْر الله يدفع قلوب المؤمنين إلى الوَجَل [١] ، وهذا لا يتنافى مع قول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ (الرعد)

ففى الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين ؛ لأن ذكر الله تعالى يأتى بأحوال متعددة ، فإنْ كان الإنسان مُسْرِفاً على نفسه ، فهو يرجف حين يذكر الله الذى خالف منهجه .

(١) يُروى أن الله عز وجل أوحى إلى داود عليه السلام : « أذكرنى حين تذكرنى وأنت تنتفض أعضاؤك ، وكُنْ عند ذكرى خاشعاً مطمئناً ، وإذا قمت بين يدى فقم مقام العبد الذليل الحقير ، وذم نفسك فإنها أولى بالذم ، وناجنى حين تناجنى بقلب خائف ولسان صادق » ذكره عبد الحق فى كتابه « الصلاة والتهجد » (ص١٨٩).
وقد أخرج نحوه عن موسى عليه السلام في الزهد (ص١٠٨)وأورده الغزالى فى الأحياء (١/ ١٦٣) .

وإنْ كان الإنسـان يُراعى حَقَّ الله فى كل عمل قَدْر الاستطاعـة ، فلا بُدَّ أن يطمئن قلبه لحظة ذكْر الله ؛ لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

إذن : فـالخوف أو الوجل إنمـا ينشأ من مـهـابة وسطوة صـفات الجـلال ، والاطمئنان إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال .

ولذلك تجمعهما آية واحدة ، هى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ (١) تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾ (الزمر)

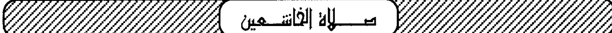
فالجلود تـقشعـر خوفـاً ووَجلاً مَهـابةً من الله عز وجل ، ثم تلين اطمـئناناً وطمعاً فى حَنَان المنَّان سبحانه وتعالى .

وهكذا نرى أن الجلود تقشـعرُّ من هَوْل الوعيد بالنـــار ، ومـجـرد قراءة ما ذكره القرآن عنها ، وبعـد ذلك تأتى الرحمة ، وفى هذه الحالة لا تلين الجلود فقط ، ولكن لا بد أن تلين القلوب ؛ لأنها هى التى تعطى اللمحة الإيمانية لكُلِّ جوارح الجسد .

فالإيمان يهزُّ كل أعضاء الجسد البشرىّ .

* * *

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٥٠) : « يروى عن سـفيان بن عيينة معنى قوله تعالى : (متشـابهاً مثانى) إن سياقـات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهـذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشىء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافـرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشــبه هــذا ، فهـذا من المثانى كقوله تعالى ﴿ إنّ الأبرارَ لَفِى نَعِيم (١٣) وإنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحِيم (١٤) ﴾ (الانفطار) .» .





الدعاء واحة العابدين

مَا دُمْتَ قد ذُقْتَ حلاوة ما أعطاك الحق سبحانه من إشراقات ونفحات وتجلّيات صفائية ، فعليك أن ترفع يديك داعياً وسائلاً الله شاكراً له سبحانه .

ولا تخشَ ، فإن دعاءك سيصل حتماً إلى ربك ، فهو القائل سبحانه :

﴿ وإذا سَألَكَ عِبَادِى عَنِّى فإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ.... (١٨٦) ﴾ (البقرة)

والله سبحانه وتعالى فى عطائه يحب أن يطلب منه الإنسان ، وأن يدعوه ، وأن يستعين به ، وهذا يُوجب الحمد والشكر ، لأنه يقينا الذل فى الدنيا ، فأنت إن طلبتَ شيئاً من صاحب نفوذ ، فلا بد أن يحدد لك موعداً ، أو وقت الحديث ومدة المقابلة ، وقد يضيق بك فيقف لينهى اللقاء .

أما الحق سبحانه فبابه مفتوح دائماً ، فأنت بين يديه عندما تريد ، وترفع يديك إلى السماء وتدعو وقتما تحب ، وتسأل الله ما تشاء ، فيعطيك ما تريده إن كان خيراً لك ، ويمنع عنك ما تريده إن كان شراً لك.

والله سبحانه وتعالى عطاؤه لا ينفد ، وخزائنه لا تفرغ ، فكلما سألته جل جلاله كان لديه المزيد[1] ، ومهما سألته فإنه لا شيء عزيز على الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أن يحققه لك .

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى لو أن أولكم ، وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤ / ١٩٩٤) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

واقرأ قول الشاعر :

حَسْبُ نَفْسِي عِزاً بأنني عبدٌ يَحْتَفِي بِي بلاَ مَوَاعِيْدَ ربُّ

هُوَ فِي قُدْسِهِ الأعزِّ ولكنْ أنـا أَلْـقَى مـتَى وأين أحِبّ

والله سبحانه يطلب منك أن تدعوه وأن تسأله ، فيقول :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ(٦٠) ﴾ (غافر)

والعلماء يقولون: إن الدعاء إذا قصدتَ بـه الذلة والعبودية يكون جميلاً، أما الإجابة فهى إرادة الله ، إن حـظك من الدعاء هو العبـادة والذلة لله ، لأنك لا تدعو إلا إذا اعـتقدت أن أسبـابك كبشر لا تقـدر على هذه ؛ ولذلك سألت من يقدر عليها ، وسألت من يملك .

ولنتعلم ما علَّمه رسول الله ﷺ لعائشة أم المؤمنين.

لقد سـألت رسول الله إذا صـادفت ليلة القـدر ، فقالت: إن أدركـتْني هذه الليلة ، بماذا أدعو؟

انظروا إلى رسـول الله ﷺ ، لقد علَّم أم المؤمنين عـائشة أن تدعو بمـقاييس الخير الواسع ، فقال لها :

« قولى: اللهم إنك عَفُوٌّ تحب العَفْو فَاعْفُ عنِّى »[1]

ولا يوجد جمال أحسن من العفو ، ولايوجد خير أحسن من العفو .

ومعنى العفو محو الأثر، كالسائر فى الصحراء تترك قدماه علامة ، وتأتى الريح لتزيل هذا الأثر ، كـأن هناك ذنباً والذنب له أثر ، وأنت تطلب من الله أن يمحو الذنب .

وعندما ندعو بالدعاء الذى علمه لنا الحق سبحانه :

﴿ واعْفُ عنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِيْن(٢٨٦) ﴾ (البقرة)

فنحن بهـذا الدعاء نتوجه إلى الله ضـارعين: أنت يا حق تعلم أننا مـهمـا أوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعى فلن نستطيع أن نؤدى حقك كاملاً ، ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أن تعفو عنا.

والعفو هو أن نرتكب الذنب ، ونطلب من الله محوه ومغفرته ، أما الرحمة فهى الدعاء بألا يُدخِلنا فى الذنب أصلاً .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ:

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦ / ١٧١ ، ١٨٢)، وابن ماجه في سننه (٣٨٥٠) ، والترمذي فى سننه (٣٥١٣) . وقال : حديث حسن صحيح . من حديث عائشة رضى الله عنها .

﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُم ... (٤٣)﴾ (التوبة)

كلمة (عفا) تدل على أن هناك أثراً قد مُحِى ، تماماً كما يمشى إنسان فى الرمال ، فتُحدث أقدامه أثراً ، ثم تأتى الريح فتملأ مناطق هذا الأثر بالرمال وتزيله .

وهى تُطلق فى الدين على محو الله سبحانه وتعالى لذنوب عباده ، فلا يعاقبهم عليها .

وما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه ، وقال: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ، فلا يجب أن يحرجه أحد بعد ذلك ، ولا أن يعايره أحد ، فقد استغفر عند مَنْ يملك الملك كله .

وهو وحده سبحانه الذى يملك العفو والمغفرة ، فلا يُدخِلنَّ أحدكم نفسه فى هذه المسألة ، ولا يجب أن يحرج إنسان مذنباً ما دام قد استغفر من يملك العفو .

ومن يسمع من يستغفر عليه أن يقول : عفا الله عنك .

ولا أحد يعرف إن كان الله قد عفا عنه أم لا ، فَلْتُعِنْه بالدعاء له .

ومن يعاير مذنباً نقول له : تأدب ، لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه .

وإذا كان من يستغفر من ذنبه لا يُحْرَج به بين الناس ، فما بالنا بعفو الله سبحانه ، القادر وحده على العفو .

فهذا شأن الرب العفو الغفور ، القائل سبحانه :

﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ ...... (١٣٥)﴾ (آل عمران)

إن الحق سبحانه وتعالى خلق خلقه ، ويعلم أن الأغيار تأتى فى خواطرهم وفى نفوسهم ، وأن شهواتهم قد تستيقظ فى بعض الأوقات ، فتنفلت إلى بعض الذنوب .

ولأنه رب رحيم بيَّن لنا ما يمحِّص كل هذه الغفلة ، فإذا أذنب العبد ذنباً أربه الرحيم يتركه هكذا للذنب ؟

لا ، إنه سبحانه شرع له العودة إليه ، لأن الله يحب أن يتوب عبده ويرجع إليه ، وإنْ غفل بمعصيته ٠

والله يحب التوبة من عباده ، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره [١] ، وقد أضله فى فلاة [٢] ، لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتعطيه نفعاً عاجلاً ، فإن حلاوة الإيمان - إن كان مؤمناً صحيح الإيمان - ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيداً عن المعاصى ٠

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٦٧٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : « قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث يذكرنى ، والله ، لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، من تقرب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلىّ يمشى أقبلت إليه أهرول » .

(٢) الفلاة : القفر من الأرض . لأنها فليت عن كل خير ، أى : فطمت وعزلت . وقيل : هى التى لا ماء فيها . وقيل : هى الصحراء الواسعة . قال ابن شميل : الفلاة التى لا ماء بها ولا أنيس (لسان العرب - مادة : فلو) .

ولذلك قيل: إن انتفعتَ بالتوبة وندمتَ على ما فعلت ، فإن الله لا يغفر لك ذنوبك فقط ، ولكن يُبدِّل سيئاتك حسنات ·

وكان من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا[1] وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) ﴾ (البقرة)

وقولهما : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾

ليس ضرورياً أن نفهم قولهما هذا على أنها توبة عن المعصية ، وأن إبراهيم وإسماعيل وقعا فى المعصية فيريدان التوبة إلى الله ، وإنما لأنهما علما أن مَنْ سيأتى بعدهما سيقع فى الذنب فطلبا التوبة لذريتهما·

والحق سبحانه يُطمئن العبد يرفع يديه داعياً الله أن يتوب عليه ، بأنه كما قال ﷺ :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها»[2]

والحق سبحانه يده مبسوطة بالتوبة فى كل زمان ، وفى كل مكان ، وليس كمثله شيء ، فالله تعالى معك ومع غيرك ، باسطاً لك ولغيرك يده ·

فاحرص دائماً على أن تتناول من يد ربك المدد الذى لا ينتهى ·

---

(١) النُّسْك والنُّسُك : العبادة والطاعة وكل ما تقرب به إلى الله تعالى . والمناسك : المتعبدات . والنسك والنسيكة : الذبيحة . [لسان العرب – مادة : نسك] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٥ ، ٤٠٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) عن أبى موسى الأشعرى .

والليل قد ينتهى عند إنسان ، ويبدأ عند إنسان آخر ، وهكذا النهار ، فالليل مستمر دائماً ، والنهار مستمر دائماً ، فيداه سبحانه مبسوطتان دائماً ، ولا تنقبضان أبداً.

والحق سبحانه يُعلِّمنا أن الإنسان يدعو بالخير لنفسه ، وأنت لا تستطيع أن تحدد هذا الخير ، لأنك قد تنظر إلى شيء على إنه الخير وهو شر، وما دمت تدعو فأنت تظن أن ذلك هو الخير.

إذن: فملحظية الأصل فى الدعاء هى أنك تحب الخير ، ولكنك قد تخطيء الطريق إلى فَهْم الخير أو الوسيلة إلى الخير .

أنت تحب الخير لا جدال ؛ لذلك تكون إجابة ربك إلى دعائك هى أن يمنع إجابة دعوتك ، إن كانت لا تصادف الخير بالنسبة لك.

ولذلك يجب ألا تفهم أنك حين لا تُجاب دعوتك كما رجوْتَ وطلبت أن الله لم يستجب لك ، فتقول: لماذا لم يستجب الله لى؟

لا ، لقد استجاب لك ، ولكنه نحَّى عنك حمق الدعوة ، أو ما تجهل بأنه شر لك ، فالذى تدعوه حكيم ، فيقول : أنا سأعطيك الخير ، والخير الذى أعلمه أنا فوق الخير الذى تعلمه أنت ، ولذلك فمن الخير لك ألا تُجاب إلى هذه الدعوة [1] .

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها مأثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث : إما أن يستجيب له دعوته ، أو يصرف عنه من السوء مثلها ، أو يدخر له من الأجر مثلها . قالوا : يا رسول الله . إذاً نكثر . قال : الله أكثر » أخرجه الحاكم فى مستدركه (١/ ٤٩٣) وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد إلا أن الشيخين لم يخرجاه عن على بن على الرفاعى » وأقره الذهبى فى التلخيص .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)﴾
(الإسراء)

فإذا دعوت فى حال انفعال غضبىّ على نفسك أو على من تحب ، فمن مصلحتك أن لا يستجيب الله لدعائك ، وما دمت عرفت الحكمة فى هذا ، فإذا دعوت بخير ، وأخَّر الله لك الإجابة ، أو لم يستجب لك ٠

فاعلم أن هذا الذى تظنه خيراً فيه شر ، فمنعه الله عنك ، لأن الإنسان دائماً يستعجل ، ويريد أن يحوز كل شيء٠

إذن : فحظك فى الدعاء لا أن تُجاب ، ولكن حظك فيه أن تظهر ضراعة عبوديتك لعِزة ربك ٠

فمن يقول: لقد دعوت ربى فلم يستجب لى٠

نقول له : لا تكن قليل الفطنة ، فمن الخير لك أنك لا تجاب إلى ما طلبت ، فالله يعطيك الخير فى الوقت الذى يريده ٠

ولذلك ، إياك أن تدعو وفى بالك أن تقضى حاجتك بالدعاء .

عليك بالدعاء فقط لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع ، ولأنك لو لم تدع فستسير أمورك كما قُدِّر لها٠

وإياك أن تفهم أنك تدعو الله ليحقق لك مطالبك ، لأنه سبحانه مُنزَّه أن يكون موظفاً عندك ، وهناك نظام وضعه سبحانه لتحقيق مطالب العباد ٠

والإنسان قد يتعلق قلبه بأماني قد تضره ، لذلك نقول : لا تتعجل بالدعاء طلباً لأمنيات قد تكون شراً عليك ، والحق العليم ينظم لنا أمورنا ٠

وإياك أيضا أن تيأس حين لا تجاب دعوتك التى فى بالك ، لأن الله يحقق الخير لعباده ، ولو حقق لك بعضاً مما تدعو فقد يأتى منها الشر٠

إذن: اجعل حظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه ، لا إجابتك إلى ما تدعو إليه ، إنك دعوت لتطلب الخير ، فدع الحق سبحانه بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير٠

لقد صان الحق سبحانه عباده بوضع رقابة على الدعاء ، وأنت تعتقد أن دعاءك بخير ، ولكن رقابة الحق سبحانه التى تعلم كل شىء أزلاً تكاد أن تقول لك: لا ، ليس خيراً ٠

وانتظر الخير بعدم استجابة دعائك ٠

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَعَسَىٰ [1] أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ (البقرة)

إذن : فمعرفتك ليست نهائية فى تقرير الخير والشر ، لذلك دع الإله الأعلى - وهو المأمون عليك- أن يستجيب أو لا يستجيب لما تدعوه ، وأنت فى ظنك أنه الخير٠

---

(١) عسى : طمع وإشفاق . وحكى الأزهرى عن الليث : عسى تجرى مجرى لعلَّ . وعسى فى القرآن من الله جل ثناؤه ، واجب ، وهو من العباد ظن . [لسان العرب - مادة : عسى] .

فالمعرفة العليا هى التى تُفرِّق بين الخير والشر ، وفى المنع أحياناً عَيْنُ العطاء ٠

فقد يلح فى دعاء لو استجيب لك لكان شراً ، والله سبحانه يعلم ما هو خير لك ، وهو سبحانه يجيب أحياناً بعض خلقه فى أشياء كان الإنسان منهم يتمنى أن توجد ، ثم يكتشف الإنسان أنها لم تكن خيراً٠

وأحياناً يأتى لك بأشياء كنت تظن أنها شر لك ، فتجد فيها الخير، وهكذا يُصحِّح لك الحق سبحانه بحكمته تصرفاتك الاختيارية٠

والحق سبحانه يعالج قضية الدعاء بالخير أو الدعاء بالشر، لأن الإنسان قد يضيق ذرعاً [1] بأمور تحيط بذاته أو بالمحيط به ، فإذا ضاق ذرعاً بأمور تحيط به فى ذاته من ألم كمرض مثلاً ، أو عاهة لا يقوى على الصبر عليها ، أو لا يقوى على تحمُّلها ، فيقول :

« يا رب ، أرحنى يا رب »

وهو هنا يدعو على نفسه بالموت ، فلو أن الله سبحانه استجاب دعاءه لقضيت المسألة .

ولكن الله هو الحكيم العزيز ، لا يأتمر بأمر أحد من خلقه ، ولا يعجل كعجلة العباد ، وكما يؤجل لك استجابته لدعوة الخير منك ، فهو يؤجل أيضاً إجابتك لدعوة الشر منك على نفسك ، وفى ذلك رحمة منه سبحانه ٠

(١) الذرع : الطاقة . وضاق بالأمر ذرعه وذراعه : أى ضعفت طاقته ، ولم يجد من المكروه مخلصاً ، ولم يُطقه . [لسان العرب - مادة : ذرع] .

وإذا كنت تقول : أنا أدعو بالخير ، والله سبحانه وتعالى لا يعطينى فخذ مقابلها ؛ أنك تدعو بالشر على نفسك ، ولا يجيبك الله . ثم ألاَّ يضيق الأب أحياناً ذرعاً بمن حوله ، فيقول : فليأخذنى الله ، لأستريح من وجوهكم ؟

هَبْ أن الله سبحانه وتعالى أجابه إلى هذه الدعوة ، فماذا يكون الموقف ؟

وقد تجد من يقول : يارب أصبْنى بالعمى فلا أراهم .

أو تدعو المرأة على نفسها أو على أولادها .

وأنتم تحبون أن يجيب الله تعالى دعاءكم ، فلو كان يجيبكم على دعاء الشر لانتهت حياتكم إلى الفزع .

إذن : قد يضيق الإنسان ذرعاً بنفسه ، أو يضيق ذرعاً بمن حوله ، فيدعو على نفسه بالشر ، وحين يدعو الإنسان فيجب عليه أن ينزه الحق سبحانه وتعالى عن أن ينفذ ما يدعو العبد به دون أن يمر الدعاء على حكمته سبحانه وتعالى .

فكما قبلتم أن يؤجل الله تعالى دعاء الشر على أنفسكم ، فاقبلوا منه تأجيل دعائكم بالخير ؛ لأن الخير الذى تطلبونه غير الخير فيما يعلم الله، فهو العليم الخبير .

وقد تطلب خيراً تعلمه ، ولكن الله يعلم فيه شراً ، فمن مصلحتك ألا يُجيبك .

وكما تحترم عدم إجابته لك فى الشر على نفسك ، أو على من تحبه ،

فاحترم عدم إجابته لك فيما تظنه خيراً لك ، أو لمن تحب ؛ لأن الله لا يعجل بعجلة عباده ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلقهم ، وهو أعلم بهم ، فهو القائل :

﴿خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ [1] (٣٧)﴾ (الأنبياء)

والدعاء هو الضراعة وإظهار الذلة والخشوع لله ، لكى يستديم اليقين الإيمانى .

والدعاء إنما يكون من عاجز يدعو قادراً على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه ، أو يعينه عليه ، وعندما تشعر أنك عاجز فأنت ترتكن إلى من له مُطلق القدرة ؛ لأن قدرتك محدودة .

إذن : فإذا كنت تطغى أو تتكبر ، فاعرف مكانتك ومنزلتك جيداً ، وتراجع عن ذلك ؛ لأنك عرض زائل .

والدعاء هو تضرع وذلة وخشوع ، وإقرار منك بأنك عاجز ، وتطلب من ربك المدد والعون ، واستحضار عجزك وقدرة ربك تمثل لك استدامة اليقين الإيمانى .

وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك ؛ لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تنفعل له ، ويبتكر ويخترع فقد يأخذه الغرور ، فيأتى له بحاجة تعز وتعجز فيها الأسباب ، فيقف ليدعو .

---

(١) أى : ركب على العجلة فخُلق عجولاً . أى : طبع الإنسان العجلة . فيستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرة . قال سعيد بن جبير والسدى : لما دخل الروح فى عينى آدم عليه السلام نظر فى ثمار الجنة ، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام ، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة . [تفسير القرطبى ٦/ ٤٤٦٥] .

مَنْ كان متكبراً وعنده صَلَف [١] وغطرسة [٢] يذهب إلى رجل « غلبان » زاهد تجرد من الجاه والسلطان منقطع لعبادة الله ، ويقول له : أستحلفك برسول الله أن تدعو لى لأنى فى أزمة ، والذى يسأل الغلبان الزاهد هو رجل عزيز فى قومه ، لكنه يظن أن الغلبان الزاهد أقرب إلى الله منه .

فالحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن ندعوه ، فيقول :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا [٣] وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) ﴾

(الأعراف)

وذلك لأنه سبحانه يعلم أننا سنواجه لحظات متعددة نعجز فيها عن أشياء ، فبدلاً من أن تظل مقهوراً بصفة العجز عن الشىء اذكر أن لك رباً قوياً مقتدراً .

وساعةَ تذكر ذلك لن تأخذك الأسباب من حظيرة الإيمان .

وقلنا من قَبْل : من له أب لا يحمل هَمّاً للحياة ، فإذا كان الذى له أب لا يحمل هماً لمطلوبات الحياة ، فمن له رب عليه أن يستحى ، ويعرف أن ربه سيوفر له الخير .

---

(١) الصلف : مجاوزة القدر فى الظَّرْف والبراعة ، والادعاء فوق ذلك تكبُّراً . [لسان العرب - مادة : صلف] .

(٢) الغطرسة والتغطرس : الإعجاب بالشيء والتطاول على الأقران ، وقيل : هو الظلم والتكبر . [لسان العرب - مادة : غطرس] .

(٣) ضرع إليه يضرع ضراعة : خضع وذلَّ . تضرع : تذلل وتخشع ، يدعونه مظهرين الضراعة وهى شدة الفقر والحاجة إلى الله عز وجل . [لسان العرب - مادة : ضرع] .

وقد يجعل الحق سبحانه من تأبِّى الأسباب وامتناعها عليك مغزىً لتلتفت إلى الله ، لكن لفتتك إلى الله لا يصح أن تكون بغرض أن يقضى حاجتك ، بل اجعل أساس لَفْتتك لله أن تظهر العجز أمامه ، والخضوع والخشوع ؛ ليعطيك ما لم يكن فى بالك حين تدعوه .

وليكن دعاؤك دعاء مستوراً مختبئاً ، خُفية بينك وبين ربك ، فلا تجهر بالدعاء وتجعله عملك الوحيد ؛ لأن النبى ﷺ علمنا حين كان فى غزوة غزاها ، فنزل أصحابه وادياً ، فلما نزلوا الوادى صاحوا بالتهليل والتكبير ، فقال ﷺ :

« أيها الناس ، اربعَوا [(١)] على أنفسكم ، إنكم ليس تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً » [(٢)] .

والدعاء إلى الله خفية يبتعد بك عن الرياء ، وهو أستر لك فى مطلوباتك من ربك ؛ لأنه حين يوضح لك : ادعُنى فى سرك لأننى سميع عليم ، أعلم كل ما ظهر منك وما بطن .

ادْعُ بالخضوع والخشوع والتذلل لتنكسر فيك شهوة الكبرياء ، وشهوة الغطرسة ، وشهوة الجبروت .

وإذا ما نظرت إلى هذا تجد أن كثيراً من العلماء يقولون :

نعرف قوماً يقرأون القرآن فى محضرنا ، وما عرفنا لشفاههم حركة ،

---

(١) اربعوا : أى أرفقوا ولا تجهدوا أنفسكم .
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٨٤)، وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٤ ، ٤٠٢، ٤١٨) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

وعرفنا قوماً يستنبطون [1] الأحكام من كلام الله ، وما رأينا منهم انفعالاً يصرفهم عنا .

إذن : فالمسألة تعبر عن شغل باطنى داخلى .

فالتضرع والخفية يقتضيان ألا أقلق الناس ، أو أن أعلن الأمور التي أريدها لنفسى ، خاصة بصوت عالٍ ، مثل من يأتى فى ختام الصلاة ويقول دعاءه بصوت عالٍ ، وهو رافع يديه .

ولمثل هذا أقول :

إن الله سبحانه وتعالى جعل لنا القنوت لندعو فيه ، وترك لكل مسلم أن يدعو بما ينفعل له .

وأنت حين تدعو فى ختام الصلاة - مثلاً - قد يوجد مُصلٍّ مسبوق لحق الصلاة بعد أن سبقه الإمام بركعة أو باثنتين أو بثلاث ، ويريد أن يكمل صلاته .

وأنت حين ترفع صوتك بالدعاء حين تختم صلاتك إنما تفسد عليه إتمام صلاته ، وتشغله بمنطوق من عندك ، وبكلام من عندك ، عن شيء واجب عليه .

ومَنْ يفعل ذلك إنما يفعله عن حسن نية ، لكنه يسيء إلى عبادة آخر .

(١) استنبط واستنبط منه علماً وخبراً ومالاً : استخرجه . والاستنباط : الاستخراج . واستنبط الفقيه إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمه . [لسان العرب - مادة : نبط] .

والرسول ﷺ يدعونا إلى الطيب من الرزق لنكون مُجَابى الدعوة .

فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال :

« أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال:

﴿ يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم (٥١)﴾ (المؤمنون)

وقال : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَات مَا رَزَقْنَاكُم ﴾**

(البقرة : ١٧٢)

ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يارب ، يارب . ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّى بالحرام . فأنَّى يُستجاب لذلك ؟ » [(١)] .

فالحرام لا يأتى منه خير مطلقاً ، بل إنه ينقلب على صاحبه شراً ووبالاً ، إن كان طعامك حراماً يدخل في تكوين خلاياك ، ويصبح فى جسدك الحرام ، فإذا دخل الحرام إلى الجسد يميل فِعْلك إلى الحرام . . فالحرام يؤرق الجسد ، ويَسُوقه إلى المعاصى .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٢٨) ومسلم فى صحيحه (١٠١٥) . والترمذى فى سننه (٢٩٨٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

فكيف يُستجاب له ؟

وشيء آخر قد يحجب عنك الإجابة ؛ لأنه إن أعطاك ما تحب فقد أعطاك في خير الدنيا الفانية ، وهو يحبك ، فيُبقى لك الإجابة إلى خير الباقية .

وهذه ارتقاءات لا ينالها إلا الخاصة ، وهناك ارتقاءات أخرى تتمثل في أنه ما دام الدعاء فيه ذلة وخضوع ، فقد يطبق الله عليك ما جاء في الحديث القدسي :

« ينزل الله تعالى في السماء الدنيا ، فيقول :

من يدعوني فأستجيب له ، أو يسألني فأعطيه ؟

ثم يقول : مَنْ يُقرض غير عديم ولا ظَلُوم ؟ »(1)

ولأن الإنسان مرتبط بمسائل يحبها ، فما دامت لم تَأتِ فهو يقول دائماً : يا رب .

وهذا الدعاء يحب الله أن يسمعه من مثل هذا العبد ، فيقول :

« إن من عبادي من أحب دعاءهم ، فأنا أبتليهم ليقولوا : يارب » .

إن الإنسان المؤمن لا يجعل حظه من الدعاء أن يُجاب ، إنما حظه من الدعاء ما قاله الحق :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ (٧٧) ﴾ (الفرقان)

فمعنى الربوبية والمربوبية أن تقول دائماً : « يارب »

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والحق سبحانه وتعـالى يضع شرطاً للاستجابة للدعـاء ، وهو أن يستجيب العبد لله سبحانه وتعالى فيما دعاه إليه ، عندئذ سيكون العباد أهلاً للدعاء.

ولذلك قال سبحانه في الحديث القدسى :

« من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »[٣]

فالله سـبحـانه وتعالى يعرف مـا فى نفسك ؛ ولذلك فـإنه يعطيك دون أن تسـأل ، وهو سبـحانه عطاؤه لا ينفـد ، وخزائـنه لا تفرغ ، فكلمـا سألتـه جل جلاله كان لديه المزيد .

ومهـما سـألته فـإنه لا شيء عزيز على الله سـبحانه وتـعالى . .إذا أراد أن يحققه لك .

ومـثال ذلـك : سيـدنا إبراهيم عليـه السـلام حـين أُلقى فى النار ، قـال له جبريل: ألك حاجة ؟

لم يَنْفِ أن له حاجة ، فلا يوجد استكبار على البَلْوى ، ولكنه قال لجبريل : أما إليك فلا .

صحيح أن له حاجة إنما ليست لجـبريل ؛ لأنه يعلم جيداً أن نجاته من النار المطبـوعـة على أن تحـرق وقد أُلقى فيـها ، هى عـملية ليست لخلـق أن يتحكم فيها ، ولكنها قدرة لا يملكها إلا من خلق النار .

---

(١) أخرجـه الترمـذى فى سننه (٢٩٢٦) من حـديث أبى سعـيد الخدرى وقـال : هذا حديث حسن غريب . وكذا أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ١٠٦) .

فقال لجبريل :

« أما إليك فلا ، وعلمه بحالى يُغْنى عن سؤالى »[1]

لذلك جاء الأمر من الحق :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ (الأنبياء)

فالحق سبحانه وتعالى يسمعك دون أن تتكلم ، فهو يعلم السر وأخْفى .

والله تعالى جعل الدعاء الخفى أفضل الدعاء ؛ لأن الإنسان قد يريد أن يدعو ربه بشىء إن سمعه غيره ربما استنقصه ، فيجعل دعوته سراً بينه وبين ربه .

لأن الله تعالى يحب أن يستر على عبده حتى ولو كان عاصياً ، فالذى تستحى أن تقوله أمام غيرك قُلْه لربك فى سرك دون أن يراك أحد .

فالدعاء الخفىّ أفضل ؛ لأن الإنسان يكون طليقاً فى دعاء ربه ، فلا يستحى أن يسأل ربه أى شىء لأنه ربه ؛ ولأن الناس يفزعون ويحزنون حين يسألهم أحد ، ولكن ربك حين تسأله يفرح .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَهيعص(١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (٣) ﴾ (مريم)

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٤٨٢) قال : « روى أبى بن كعب عن النبى ﷺ : « إن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه فى النار . قال : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك ، لا شريك لك » قال : ثم رموا به فى المنجنيق من مضرب شاسع فاستقبله جبريل . فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . فقال جبريل : فاسأل ربك . فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالى » .

الحق سبحانه وتعالى يعرض هذه القضية فى أن رحمة الله لعبده زكريا تتجلى فى أن الله استجاب دعاء زكريا فى أن يعطيه ولداً على كبر سنِّه .

والنداء الذى ناداه زكريا طلب إقبال ، ولكن إذا ناديتَ ربك ، أيصح أن تقول : إننى أطلب إقبال ربى؟

هذا لا يصح ، لأن ربك أقرب إليك من حبل الوريد ، فلا يحتاج إلى نداء. فإذا أُطلقَتْ كلمة النداء بالنسبة لله تعالى ، فالمراد بها الدعاء ؛ لأن ربك قريب منك ، ولا يحتاج إلى نداء .

ولذلك قال تعالى عن زكريا :

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) ﴾ (مريم)

فإيَّاك أن تظن أن الله يحتاج إلى رَفْع الصوت لكى تسمعه ، فالسر والجهر عند الحق سواء .

قال تعالى :

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ (الملك)

فالحق سبحانه سوَّى بين الجهر والسر فى معلومه ، فهو يعلم السر كما يعلم الجهر .

فزكريا دعا ربه دعاء خفياً ، حتى لا يسمعه أبناء عمومته ومواليه [1] ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٢٤٨) : « الموالى هنا : الأقارب وبنو العم والعصبة الذين يلونه فى النسب » .

فيغضبوا منه ، فهو لم يأمنهم على حمل منهجه من بعده ؛ لأن ظاهر حركتهم فى الحياة غير متّسق مع المنهج ، فهم غير مأمونين ، وإذا كانوا غير مأمونين على أنفسهم فَهُمْ غير مأمونين على الناس .

فإذا دعا وقال : يارب أعطنى ولداً يرثنى ويرث النبوة ، فسيغضب هؤلاء الموالى ويقولون : إنه لا يأمنَّا ويعادونه ، فجعل الدعاء خفياً حتى لا يشعر به أحد .

ونداء زكريا كان هو قوله :

﴿ ربِّ إنى وَهَنَ [1] العَظْمُ منِّى واشْتَعَلَ الرَّأسُ شيباً [2] وَلَم أكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياً (٤) وإِنِّى خِفْتُ المَوالِيَ مِن وَّرَائِى وَكَانَتِ امْرأتِى عَاقِراً فَهَبْ لِى مِنْ لَّدُنْكَ وَلِيَّاً (٥) يَرِثُنِىْ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً (٦) ﴾ (مريم)

وأنت فى الدعاء إما أن تقول : يا الله . أو تقول : يا رب .

وأنت حين تقول « يا رب » فهذا أمر يتعلق ببنية حياتك حتى ولو المعطاة للكافر ؛ لأنه تعالى رب يعطى الكافر ويعطى المؤمن .

---

(١) وهن : ضعف . قال القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٢٤٧) : « قال أبو زيد : إنما ذكر العظم لأنه عامود البدن ، وبه قوامه ، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته ، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن منه » .

(٢) اشتعال الرأس شيباً : انتشار الشيب في الرأس . والشيب : مخالطة الشعر الأبيض الأسود . (تفسير القرطبى ٦/ ٤٢٤٧) .

لكنك تقول : « يا الله » فى أمور العبادة .

فهنا قال : ﴿ ربِّ إنى وَهَنَ العَظْمُ منِّى . . (٤) ﴾ (مريم)

لأن الكلام فى صـــلاح بنيتـه ، لينجب ، وهذا أمـر من أمـور ربوبيـة الله لخلقه ، وإن كانت العلة إلهية ؛ لأنه يريده ليحمل منهج الله من بعده .

❊ ❊ ❊

دعاء الشيخ الشعراوى

بسْم الله الرحمن الرحيم ، والحمْدُ لله رَبِّ العَالمينَ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرف المرسَلينَ ، وخَاتم النَّبيِّينَ ، ورَحْمة الله للعَالمينَ سَيِّدنَا محمد ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ ..

يَا ربِّ نسألُكَ بمَا سألكَ به نبيُّك محمد ﷺ أنْ تَقْسم لنَا منْ خشيتكَ مَا يَحولُ بيننا وبين مَعَاصيكَ .

ونسألُكَ أنْ تقسمَ لنَا منْ رحمتكَ مَا يُقرِّبُنَا منْ طاعتكَ .

ونسألُكَ ياربِّ أنْ تَرزقنَا منَ اليقين مَا يُهوِّنُ عَلَينا مصائبَ الدنيا وأحداثها .

ونسألُكَ يا ربِّ ألاَّ تجعلَ هَمَّنا دُنيَانَا ، وألاَّ تجعل دُنْيانا مَبْلغَ علمنا ، وألاَّ تجعلَ مُصيبتنَا فى ديننَا .

اللهُمَّ إنَّا نسألُكَ أنْ تجعلَنَا منَ الذينَ إنْ أَحْسَنُوا اسْتَبْشَرُوا ، وإذَا أسَاؤوا اسْتَغْفروا .

اللهُمَّ أعْطنَا منَ الخيْر مَا تعْلمُ أنَّهُ الخيْر ، ورَضِّنَا به ومَا علمتَهُ غَيْر ذَلكَ فتكرَّم علينَا بألاَّ تُجيبنَا إليْه وادَّخرْهُ لنَا ، فإننا نسْألُكَ يَا ربِّ على قَدْر مَا نعلمُ ، ومَا أقَلَّ مَا نعلمُ وأكثرَ مَا نجهلُ .

اللهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بكَ من علْم لاَ ينفعُ ، وعَملٍ لاَ يُرفَع ، ونعوذُ بكَ من قَلْبٍ لاَ يخشَع ، ونعوذُ بكَ من عَملٍ لاَ يُرفع .

اللهُمَّ إنَّا نَسألُك فى هَذَا الموقف عَزَائم رَحمتكَ .

اللهُمَّ أمْتعْنَا بأسْمَاعنَا وأبْصارنَا وقُوَّاتنَا واجْعلْها الوارثَ منَّا .

اللهُمَّ اجعلْ ثَأرَنا على مَنْ ظلمنَا وانْصُرْنا على أعدائنا ..

اللهُمَّ إنَّ قلوبنا وَجوارحنَا لا نملك شيئاً منها ، فهى لكَ وحدكَ ، فحيثُ جَعلتَهَا لكَ وحدكَ ، فكُنْ أنتَ يَا ربِّ وَليَّها ، ولاَ تُحرِّك قُلُوبنَا إلاَّ بحبِّك ، ولاَ تعمل جوارحُنَا إلاَّ فى طاعتكَ ، بحيثُ يكون كُلُّ أمرٍ منْكَ مُمْتثَلاً ، ويكون كُلُّ نهيٍ منْكَ مُجْتَنَباً ..

يَا ربِّ يا ربِّ ، نسألُكَ بأنكَ الملكُ ، وأنتَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ ، ومَا تشاءُ منْ أمر يكونُ ..

يَا ربِّ يا ربِّ يَا ربِّ. ومَا أَحسنَها منْ راحة حينَ نعلمُ أنَّ لَنَا ربّاً نَفْزَعُ إليه مُجرَّد النُّطق بها يُريحُنَا يارب .. فكيفَ بالعَطَاء بعدَهَا ؟ .. يا شُؤْم مَنْ ليسَ لَهُ رَبٌّ يَستنجدُ به .. يا بُؤْسَ مَنْ ليس لَهُ إلهٌ يَلْجأ إليه ، كيف يعيشُ دُنْياه ؟ وكيف يستقبلُ مصائبَ حَياته ؟

اللهُمَّ إنَّا نحمدُكَ ، لأنَّكَ هَدَيْتَنَا إلى الإيمان ، ونحمدُكَ لأنكَ هديْتَنَا إلى الإسْلاَم . اللهُمَّ اغفرْ لآبَائنَا وأمَّهاتنَا الذينَ حَملُوا لَنَا دينكَ ، ولم يُكلِّفُونا الضياعَ فى مَتَاهات العقائد .. اللهُمَّ ارحمهُمْ وارْحَم آبَاءَهُمْ وأمُهاتهم إلى أوَّلهمْ فى الإسْلام .

اللهُمَّ كما سألْناكَ لمنْ مَضَى منا الرحمة ، فنسألُكَ لمنْ بقى منَّا العفْوَ والعَافية والعفَّة ونسألُكَ لَهُ الاسْتقَامةَ على منهجكَ ..

اللهُمَّ اهْد حُكَّامَ المسْلمينَ لمنهجكَ .. اللهُمَّ اهْد حكَّام المسْلمينَ لمنهجكَ .

اللهُمَّ إنَّا نسألُكَ أَنْ تجمعَهُم على دينكَ ، وأنْ تُوحِّد صُفُوفهُم تحت راية قُرآنكَ ومَنهج نبيِّك .

اللهُمَّ إنَّا نسألُكَ يَا ربِّ أَنْ تجعلَ هَؤُلاء رُوَّاد كلمة يَقولُونها ، وهي دُستور الحكْم في بلاَد الإسْلام القرآن .. اللهُمَّ ألهمْهُم هَذَا المنطق .. اللهُمَّ وفِّقْهم إنْ هُمْ فعلُوا .. اللهُمَّ اهْدهمْ إليه .. اللهُمَّ إنَّا نسألُكَ لهم عَزْماً وتَوْفيقاً وسَداداً .

يَا ربِّ .. يَا ربِّ .. نسألُكَ بأنكَ الملكُ ، وأنتَ على كُلِّ شَيء قَديرٌ ، وما تَشاءُ من أمْرٍ يكونُ ..

يَا ربِّ .. يَا ربِّ .. نسألُكَ لَهُم جَميعاً مَغْفرةً ورَحْمةً ورضْواناً . اللهُمَّ مَنْ وصلْتَه في هذا اليوم فَلاَ تحرمْهُ الوَصْلَ إلى أنْ يموت .

اللهُمَّ مَنْ حَالتْ أسبابُه وعوائقُه أنْ يقفَ هذا الموقفَ فَيسِّرْ لَهْ وسَهِّل أمْرَهُ ،وزَلِّلْ أمامَهُ العقَبات ، لينعمَ كُلُّ عبيدكَ بتلكَ الفَرْحة ؛ لينعمَ كُلُّ عبيدك بهذَا الجمال ، لينعَمَ كُلُّ عَبيدكَ بهذَا الجلاَل ..

يَاربِّ ياربِّ ، نسألُكَ بأنكَ الملكُ وأنتَ على كُلِّ شيء قَديرٌ ، ومَا تشَاءُ منْ أمر يكونُ .. يَا ربِّ يا ربِّ يَا رَبِّ ، نسألُكَ بأنَّكَ الملكُ وأنتَ على كُلِّ شَيء قَدير ، ومَا تشَاءُ من أَمْر يكونُ .

وصلَّى اللهُ وسلَّم على سيِّدنا ومَوْلاَنَا محمد ، رحمة الله للْعَالمينَ ، وخَاتَم أَنْبيائه المرسَلينَ ، وسَلاَمٌ على إخوانه المرسَلينَ جميعاً ..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرف المرسَلينَ ، وخَاتم النَّبيِّينَ ورَحمة الله للعَالمينَ سيِّدنَا محمد ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ ..

فَإنكَ يَا ربِّ كما شرَّفتنَا بالإيمان بكَ ، وكَرَّمتنَا في أركان الإسْلام بالصِّيام لَكَ أَعنَّا على طاعتكَ فيه ، واجعَلْ اللهُمَّ صَفَاءَ أرواحنَا في استقباله وَسَيلةً للإجَابَة في كُلِّ مَا نَسأل ممَّا علَّمتنَا أنْ ندعوكَ به في قَولك في كتابكَ الكريم .

رَبَّنا رَبَّنا رَبَّنا ، وفي كُلِّ من سألك به مَنْ اصْطفيْتهُمْ للرسَالة منْ آدمَ أوَّل خليفة لله إلى سيِّدنا محمد خاتم رُسُل الله ..

وأوَّل دُعائي فيه أنْ أوفَّق أنَا والمسْلمون جميعاً بأنْ نقيمه على أصْفى مَا تحب وأظْهر مَا تريدُ ، وأنْ تجعلَ الطاقةَ منه عَوْناً على كُلِّ حَركتنَا في الحَياة حتَّى يكون صَفَاؤُنَا فيه نُور كُلِّ مكان ، وشُعَاع كُلِّ زَمان ، وحتَّى لاَ تقتصرْ بركتُه على رَمضانَ ، بَلْ تَشيعُ ورَعاً في كُلِّ الأحْيان ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سيِّدنا محمد ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

❊ ❊ ❊

بسْم الله ، والحمْدُ لله ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدنَا محمد النبيِّ الخَاتم ، ورَحْمة الله للعَالمين ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ ..

فَإنِّي أَسْتهلُّ دُعَائي بمَا استُهلَّ به كتَابُكَ الكَريم :

﴿ بسم الله الرحْمَن الرَّحيم ❊ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعالَمينَ ❊ الرحْمَن الرَّحيم ❊ مَالك يَوْم الدّين ❊ إيّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعينُ ❊ اهْدنا الصّرَاطَ الْمُسْتَقيم ❊

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولاَ الضَّآلِّينَ ﴾ .. آمين .

اللهُمَّ أنتَ ربِّى لاَ إلـهَ إلا أنْتَ ، خلقْتَنى وأنَا عـبـدُكَ ، وأنَا على عَـهـدكَ وَوعدكَ مَا استطعْتُ ، أعوذُ بكَ منْ شرِّ مَا صنعْتُ ، أبُوءُ لَكَ بنعمتكَ علىَّ ، وأبُوءُ لَكَ بذَنبى فاغفرْ لى ، فَإِنَّهُ لاَ يغفرُ الذنوبَ إلاَّ أنتَ ..

اللهُمَّ إنكَ شرَّعتَ السؤَالَ راحةَ بَالٍ ، وإلاَّ فَمـاذَا نَسْألُ ، وقَدْ أعطيتنَا قبْلَ أنْ نعرفَ كيْفَ نسْألُ .

وَصَلِّ اللهُمَّ على سيِّدنا مُحمَّدٍ رحـمـةِ الله للعَـالمينَ ، وخاتَم الأنـبيَـاءِ والمرْسَلينَ .

❊ ❊ ❊

بِسم الله الرحْـمَن الرَّحـيم ، والحَـمْدُ لـلَّه والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَـيِّدنَا رسُـولِ الله .. الحـمـدُ لله الذى خَلقَ السَّـمـوات والأرْضَ ، وجـعلَ الظُّلمـات والنُّور ..

اللـهُمَّ أنتَ ربِّى لاَ إلـهَ إلا أنْتَ ، علـيْكَ توكَّلْـتُ ، وأنتَ ربُّ العَــرْش العَظيم .. مَـاشَـاءَ الله كَـانَ ، ومَا لَمْ يَشَـأْ لم يكُنْ ، ولاَ حَـوْلَ ولاَ قُـوةَ إلاَّ بالله العَليِّ العَظيم .. أَعْلَمُ أنَّ الله على كُلِّ شَىء قدير ، وأنَّ الله قَدْ أحَاطَ بكُلِّ شَىء علْماً ..

اللهُمَّ إنِّى أَعُوذُ بكَ منْ شرِّ نفسِى ، ومنْ شرِّ كُلِّ دَابَّة أنتَ آخذٌ بنَاصيتها ، إنَّ ربِّى على صراطٍ مُسْتقيم .

اللهُمَّ إنَّا ندعُوكَ ضراعةَ نداء ، وذُلّ احتماء ، فإننا نَعْلُو بمَا تَشَاءُ عَلى مَا نَشَاءُ .. وصَلَّى الله عَلى سَيِّدنا محمدٍ رَحمةِ الله للْعَالمينَ وَخَاتمِ الأَنْبياءِ والمرْسلين .

❋ ❋ ❋

دعاء القرآن الكريم

بسْم الله الرحمن الرحيم ، والحمْدُ لله رَبِّ العَالمينَ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدنا رسُول الله .. الحمْدُ لله الذى هَدَانَا لهذَا ، ومَا كُنَّا لنهتَدىَ لَوْلاَ أنْ هَدانا الله ..

اللهُمَّ إنِّى عَبْدُك ، وابْنُ عَبدك ، وابْنُ أمتكَ ، نَاصيتى بيدكَ ، مَاضٍ فىَّ حكمُكَ ، عَدْلٌ فىَّ قَضَاؤُكَ .. أسألُكَ بكُلِّ اسْم هُوَ لكَ سمَّيْتَ به نفسَكَ ، أَوْ أنزلْته فى كتابكَ ، أوْ علَّمتَهُ أَحداً منْ خَلْقك ، أو استأثرْتَ به فى علْم الغيب عندكَ أنْ تجعلَ القرآنَ الكريمَ ربيعَ قَلْبى ، ونُورَ صَدْرى ، وجَلاءَ حُزْنى ، وذَهَاب غَمِّى ..

اللهُمَّ إنِّى أتوسَّلُ بكَ إليْكَ ، وأقسم بكَ عليْكَ ، فكمَا كُنْت دَليلى عليك ، فكُن اللَّهُمَّ شفيعى لديْكَ ، فإنَّ حَسَناتى منْكَ ، وإنَّ سيِّئاتى منِّى ، فَجُد اللهُمَّ بما هُوَ منْكَ على مَا هو منّى .

وصَلَّى الله عَلى سيِّدنا محمدٍ ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

❋ ❋ ❋

دعاء الصباح والمساء

بِسْم الله ، والحمْدُ لله ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدنَا رَسُول الله .

الحَمـدُ لله الذى لَمْ يتخذْ وَلداً ، ولم يكُـنْ لَهُ شَرِيكٌ فى الملك ، ولَمْ يكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّل وكبِّره تكْبيراً .

اللهُمَّ إنِّى أصبـحْتُ وأمْسَيْتُ أُشْـهـدُكَ ، وأُشْهـدُ مـلائكتَكَ وَحَمَلَةَ عَرْشكَ ورُسُلك ، إنَّكَ أنتَ اللهُ لاَ إلهَ إلاَّ أنتَ ، وحْدك لاَ شَرِيكَ لَكَ ، وأنَّ محمداً عبدُكَ ورسُولُكَ ، بلَّغ الرسَالةَ وأدَّى الأمانة ، ونصحَ الأمة وكشفَ الغُمَّـةَ ، فآته الوسيلةَ والفَـضيلةَ والدَّرجةَ العَـالية الرَّفيـعة ، وابْعثْـهُ اللهُمَّ المقامَ المحمودَ الذى وعدْتَه ، إنكَ لاَ تُخلفُ الميعادَ ..

اللهُمَّ يَا مالكَ كُلِّ مَنْ مـلكَ ، ولذلك تُؤْتيه مَنْ تَشَاءُ ، وتنْزعُـه ممَّنْ تشَاءُ ، ولَكَ من عَالَم المُلك مَا لاَ يُملك ، ولَكَ من عَـالَم المَلكُوت مَا لا تطلع عليه إلا عباد الرحموت ، وَصَلِّ اللهُمَّ عَلى سَـيِّدنا محمّدٍ ، وعلَى آله وصَحْبه أجمعينَ

❊ ❊ ❊

دعاء المغفرة

بسم الله الرحْمَن الرَّحيم ، والْحَـمْدُ لله رَبِّ الْعالَمينَ ، والصَّلاةُ والسَّـلامُ على أشـرف المُرسَلينَ ، وخَـاتم النَّبـيِّينَ ورَحْـمـة الله للْعَالمينَ سَيِّدنَا محمد ..

الحَـمـد لله الذى نجَّـانا مِنَ القَـوْم الظَّـالمينَ .. رَبِّ آت نُفُـوسَـنَا تَقْواهَا ، وزَكِّها أنْتَ خَيْر مَنْ زكَّاهَا ، أنتَ وَليُّها ومَوْلاها ..

اللهُمَّ اغْنِنَا برحمتكَ عَنْ رحمة مَنْ سواكَ ، واجعلْ نعمتَكَ علينا مُذكِّرةً بكَ ، ومُعينةً على طَاعتكَ .

اللهُمَّ يَا ربَّ كُلِّ شيء ، بقُدْرتكَ على كُلِّ شيء اغْفرْ لنَا كُلَّ شيء ، ولاَ تَسْألنا عَنْ شيءٍ .. وصَلَّى اللهُ عَلى سَيِّدنا محمّدٍ ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

* * *

دعاء الخير والشر

بسم الله الرحْمَن الرَّحيم ، والحَمْدُ لله رَبّ العالَمينَ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرف المرسَلينَ ، وخَاتم النَّبيِّينَ ورَحْمة الله للعَالمينَ ، سيِّدنَا محمد وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

الحمْد لله الذى فَضَّلَنَا على كَثير منْ عبَاده المؤمنينَ ..

اللهُمَّ إنِّى أَعُوذُ بكَ من علْم لاَ ينْفعُ ، ومنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ ، ومن نَفْس لاَ تَشبْعُ ، ومنْ دَعْوة لاَ يُستجَابُ لها ..

اللهُمَّ يَا مُصوِّبَ خَطأ الدُّعاء بألاَّ تُجيبَ ، ولذلك تحمى منَ الضَّرِّ مَنْ يدعُو بالشرِّ دُعَاءَهُ بالخَيْر .

سُبْحانك - ولاَ تُقَالُ إلاَّ لكَ - حَذَّرتنَا ألاَّ نحكُمَ فيمَا لا نعلَمُ حتَّى لاَ نُحكِّمَ الأهْواءَ فى تزْيين مَا نشاء ، وحَسْبُنَا منْ قَولك عَسَى أَنْ تُحبّوا ، وعَسَى أَنْ تكْرَهُوا مَا أيَّدهُ الواقعُ منْ شرٍّ فيمَا نحبُّ ، ومنْ خيْر فيما نكرهُ .

وَصَلِّ اللهُمَّ عَلى سيِّدنا محمّدٍ ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

* * *

دعاء الذات والأفعال

بسم الله والحمد لله وصَلَّى الله عَلى سَيِّدنَا رَسُول الله .

اللهُمَّ إنِّى أَسْأَلُكَ يَا حَى صفةَ ذاتكَ ، ويَا مُحيي صفَة أفعالكَ ، وما بالذَّات لاَ يفوتُ ، وَمَا بالفعْل يُحيى ويُميتُ .. يَا مُصَوِّبَ خَطَأَ الدُّعاء بألاَّ تُجيب ، وبهذا حَميْتَنا منَ الضُّر ؛ لأنَّ الإنسانَ كَمْ يَدْعُو بالشرِّ دُعَاءَهُ بالخَيْر .

سُبْحانك يَا ربِّ - ولاَ تُقَالُ إلاَّ لكَ - حَذَّرتنَا ألاَّ نحكُمَ فيمَا لا نعلَمُ حتَّى لاَ نُحكِّمَ الأهْواءَ فى تزْيين مَا نشاء ، وحَسْبُنَا منْ قَولك عَسَى أَنْ تُحبّوا ، وعَسَى أَنْ تكْرَهُوا مَا أيَّدهُ الواقعُ منْ شرٍّ فيمَا نحبُّ ، ومنْ خيْر فيما نكرَهُ .

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم عَلى سَيِّدنا محمّدٍ ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

❊ ❊ ❊

دعاء الأنس بالله

بسم الله الرحْمَن الرَّحيم ، أحمدُكَ ربِّى وأسْتَعينُكَ ، وأصلِّى وأُسلِّمُ عَلى خَيْر خَلْقكَ سَيِّدنَا محمَّد .

اللهُمَّ إنّى أسْألُكَ أنْ تجعلَ مَا وهبْتنَا ممَّا نُحبّ مَعُونةً لَنَا عَلى مَا تُحب ، ومَا زَويْتَ عنَّا ممَّا نحبُّ ، فَاجْعلْهُ فَرَاغاً لَنَا فيما تحبُّ .

اللهُمَّ لاَ تجعلْ أُنْسنا إلاَّ بكَ ، ولاَ حَاجتنَا إلاَّ إليْكَ ، ولاَ رغبتنَا إلاَّ فى ثَوَابك والجنة ..

وصَلَّى الله وسَلَّم عَلى سَيِّدنا محمّدٍ ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

❊ ❊ ❊

دعاء شكر النعمة

بسم الله ، والحَمْد لله ، وصَلَّى الله وسَلَّم عَلى سَيِّدنَا ومَولانَا رَسُول الله .

اللهُمَّ إنّى أَسأَلُكَ أَنْ تبْسُطَ لسَانى بشُكْر النعمة منْكَ ، وأسأَلُكَ أَنْ تقبضَ عَنْ نَفْسى تَلَصُّصَ الغَفْلة عَنْكَ - يَا مَالك قَبْل أَنْ يُوجَد مملُوكٌ ، ويَا أوّل لاَ قَبْل آخر .. ويَا آخر لاَ بَعْد أوّل ، فَذَاكَ فى ذَاك ، فَقفْ أيها العقلُ عنْد مُنْتهاكَ .

وصَلَّى اللهُ عَلى سَيِّدنا محمّد ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

❊ ❊ ❊

دعاء إتيان الملك

بسم الله ، والحْمد لله ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدنَا رَسُول الله .

اللهُمَّ إنَّا ندعُوك ضَرَاعةَ نداء ، وذُلَّ احْتماء ، لأنَّا نَعْلُو بمَا تَشاءُ عَلى مَا نَشَاءُ .

اللهُمَّ إنَّكَ شرعْتَ السُّؤالَ راحةَ بَال ، وإلاَّ فَماذَا نسألُ وقَدْ أَعْطيْتنا قبْلَ أنْ نعرف كيف نَسْألُ .. يَا مَالكاً كُلَّ مَنْ ملكَ ، ولذلكَ تُؤتيه مَنْ تَشَاءُ ، وتنزعُه ممَّنْ تشاءُ ، ولَكَ منْ عَالَم المُلْك مَا لا يملكُ ، ولَكَ منْ عَالَم الملكُوت مَالاَ تَطَّلع عليه إلا عباد الرَّحموت .

وصَلَّى اللهُ وسَلَّم عَلى سَيِّدنَا ومَوْلانَا محمد ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

❊ ❊ ❊

بسْم الله ، والحمْدُ لله ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدنَا رَسُول الله .

دعاء ستر العيوب

اللهُمَّ إنَّا فى سَتْرِكَ لعيُوبنَا ، وفى أمْـر عبادكَ بالسَّتْر علَينا بشَارةً بالمغْفرة . فَما كُنتَ لتسْـتُرَ فى دَار الفَنَاء لتَفضحَ فى دَار البقاء ، وحتَّى لاَ نَزْهدَ فى حَسَنَـات مَنْ نعرفُ لَهُ سيئةً ، وحَـسْبُنَا جَزَاءً على سَتْرِ عُيوبِ سوَانَا أنْ تَسْتُر غيرنَا عَنْ عُيوبنَا .

وصَلَّى الله وسَلَّم عَلى سَيِّدنَا ومَوْلانَا مُحَمد .

* * *

بِسْم الله ، والحمْدُ لله ، وصَلَّى الله وسَلَّم عَلى سَيِّدنَا رَسُولِ الله .

اللهُمَّ إنِّى أعلمُ أنِّى لمَّنْ عَصَاكَ ..

دعاء أخذ الكافرين

اللهُمَّ إنَّ بَعْض خَلْقكَ قد غرَّهُمْ حلْمكَ ، وَاسْـتبْطَأوا آخرتَكَ ، فَلَمْ يتـبـعُوا القُـرآنَ ، وسَـخرُوا مِنْ أهْلِ الإيمَـان ، فأسْـألُكَ ألاَّ تُمهلَهُمْ ، حتَّى لاَ يَكُونُوا أُسْوةً لكُفْر غيْرهم .

اللهُمَّ إنِّى أحـمــدُكَ عَلـى كُلِّ قَضَـائكَ ، وَجـمـيع قـدَرِك مِنْ الرِّضَا بحكُم اليَقين بحكمتكَ .

وصَلَّى الله وسَلَّم عَلى سَيِّدنَا ومَوْلانَا محمد .

* * *

دعاء أولى العزم

بِسْم الله ، والحمْدُ لله ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدنَا رَسُولِ الله .

اللهُمَّ إنِّى أَدْعُوكَ بما دَعَـاكَ به أولُوا العزْم من الرسُل ، فَـأدْعُوكَ بما دَعَاكَ به آدمُ عليه السَّلام :

(ربَّنا ظَلمْنَا أَنفُسنَا وإِنْ لَمْ تغفرْ لنَا وترحَمْنَا لَنكُونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ) .

[الأعراف : ٢٣]

وأَدْعُوكَ بما دَعَاكَ به نُوح عليه السَّلامُ ، حينَ قَالَ :

(رَبِّ اغفـرْ لِي ولوالديَّ ولمنْ دَخَل بَيتِيَ مُؤْمناً ولِـلْمؤمنينَ والمؤمنَات وَلاَ تَزِد الظالمينَ إلاَّ تَبَاراً) [نوح : ٢٨]

وندعوك بما دعاك به إبراهيم عليه السلام ، حينما قال :

(رَبِّ اجْعلْني مُقيمَ الصَّلاة ومنْ ذُريتي ربَّنا وتقبَّلْ دُعَاء) [إبراهيم : ٤٠]

وصَلَّى الله وسَلَّم عَلى سيِّدنَا مُحَمد ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

* * *

دعاء يوسف موسى سليمان

بِسْم الله ، والحمْدُ لله ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدنَا رَسُول الله .

اللهُمَّ إنِّي أَدْعُوكَ بما دَعَاكَ به يُوسف عليه السلام :

(رَبِّ قَدْ آتيـتَني منَ الملْك وعلَّمتَني منْ تَأويل الأحَـاديث فَاطرَ السَّموات والأَرْضِ أنتَ وَلِيِّي في الدُّنْيـا والآخرة توفَّني مُسْلماً وألحقْني بالصَّالحينَ) . [يوسف : ١٠١]

أَدْعُوكَ بما دَعَاكَ به موسَى عليه السلامُ قال :

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيسِّر لِي أمْرِي * واحْلُلْ عُقْدةً منْ لسَاني * يَفْقهُوا قَوْلي) . [طه : ٢٥ - ٢٨]

أَدْعُوكَ بما دَعَاكَ به سُليمان عليه السلامُ ، حينَ قالَ :

(رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ). [النمل : ١٩]

وصَلَّى الله وسَلَّم عَلى سَيِّدنَا ومَوْلانَا مُحَمد وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

❊ ❊ ❊

دعاء العجز عن إدراك الله

بسْم الله ، والحمْدُ لله ، أَحْمدُك ربِّى وأَسْتعينُكَ ، وأصلِّى وأسلِّم على خَيْر خَلْقكَ سَيِّدنَا مُحَمد وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

اللهُـمَّ يَا وَاجبَ الوُجُـود ، وبِكَ كُـلُّ مَـوْجُـود ، لاَ تُدركُكَ الأَبْصَارُ لكمَال ذَاتكَ ، وتَدرك أنتَ الأبصَارَ لإحَاطَة صفَاتكَ ، فـإذَا كانـتْ الرُّوحُ التى تحـيَا بهـا النفسُ لاَ يُدركـهـا أىُّ حَىّ ، فكيفَ نُدركُ مَنْ خلقَ ، وقَدْ عجزْنَا عَنْ إدراك مَا خَلقَ .

وصَلَّى الله وسَلَّم عَلى سَيِّدنَا ومَوْلانَا مُحَمد وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

❊ ❊ ❊

بسْم الله ، أَحْمدُه وَأَسْتَعينُهُ وأصلِّى وأُسلِّم عَلى خَيْـر خَلْقهَ سيِّدنا محمد ، وعَلى آله وصَحْبه أَجْمعينَ .

دعاء الجنة

اللهُمَّ يَا مُقيتَ لمَادتنَا بالغذَاء ، ويَا مُـقيتَ قيمنَا بمَا شَرعْتَ منْ إسْلام وَأَحْكَام ، نَسْـأَلُكَ أَنْ تُعيننَا وتُقـيتنا فى دار البَـقاء بمَا لاَ عَيْنٌ رأَتْ ، ولاَ أُذُن سمعتْ ، ولاَ خطرَ على قَلْب بَشَر .

وصَلَّى الله عَلى سَيِّدنَا مُحَمد وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

❊ ❊ ❊

دعاء الجامع المانع

بِسْم الله ، والحَمْدُ لله والصَّلاةُ والسَّلام عَلى سَيِّدنَا رَسُول الله .

اللهُمَّ أنتَ الجَامعُ المانعُ ، جـمـعْتَ لذَاتكَ مَـا لاَ يُحـصَى منْ صفَـات الكمال ، ومنعت بسُـبْحَانيـتكَ أنْ يُشبهَكَ أيُّ مـثَال ، وجَمعْتَ لكُلِّ خَلْقك كُلَّ خَـيْر ، ومنَعْتَ من أطاعكَ من تَسَلَل أيِّ شرٍّ .

فَاعْطنَا اللهُمَّ خيْرَ جَامعيتكَ ، وحَصِّنَّا اللهُمَّ بمَانَعيتك ..

وَصَلِّ اللهُمَّ وسَلِّم عَلى سَيِّدنَا محمد ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

* * *

دعاء الفضل والإحسان

بِسْم الله ، أَحْـمدُه وأَسْتَـعِينُه ، وأُصلِّى وأُسلِّـم عَلى خَيْر خَـلْقه سَيِّدنَا مُحمد .

اللهُمَّ يَا حَسِيبُ ، وكَفَى بكَ حَسِيباً ..

اللهُمَّ يَا رَقيبُ ، وكَفَى بكَ رَقيباً ، لاَ يَعْزبُ عنكَ أصْغَرُ ذَرة فى السَّموات ولاَ فى الأرْض ، ولاَ يُعجزُكَ شيء لإحاطة قُدرتكَ ، فَعَاملْنَا اللهُمَّ بالفضْل لاَ بالعَدْل ، وَالإحْسَـان لا بالميزان ، وحَسْبُنَا منْ رَحمتكَ التى وَسـعَتْ كُلَّ شَىءٍ مَـا شكرْنَاهُ من نعَم رُبُوبـيتكَ ، ومَـا أطَعْنَاهُ منْ نعْـمَـة أُلُوهيتكَ .

وصَلَّى اللهُ عَلى سَيِّدنَا محمد ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

* * *

دعاء الحياء والقناعة

بِسْمِ الله ، والحَمْدُ لله ، وصَلَّى اللهُ عَلى سَيِّدنَا رَسُولِ الله .

اللهُمَّ إنَّا لا نَخـلُو عَنْ نظرِكَ طَرْفَـةَ عَـيْن ، فَـارْزقْنَا الحـيـاءَ مِنْ مَعْـصيتكَ ، وعلـمنا أنَّ لنَا رزقاً لا يتجَـاوزُنَا وقَدْ ضَـمنْتهُ لنَا ، فَـقنّعْنَا به ، واحـفظْنَا منَ التَّلَصُّصِ له ، وعَلمـنا أنَّ عليْنَا دَيْناً لاَ يُؤدِّيه عنَّا غـيـرُنا ، فَاجْـعَلنَا فِى شُـغْلٍ به ، وعَلمنَا أنَّ لنَا أجَـلاً يُبَادرُنَا بغتةً فأعنَّا ربَّنَا بطاعتك ، ولاَ تتخلَّ عنَّا بمعُونتكَ .

وصَلَّى اللهُ عَلى سَيِّدنَا محمد ، وعَلى آله وصَحْبه أجمعينَ .

* * *

دعاء الشفاء

بِسْمِ الله ، والحَمْدُ لله ، وصَلَّى اللهُ عَلى سَيِّدنَا رَسُولِ الله .

اللهُمَّ إنَّكَ الشَّفـيعُ الأعلَى بَعْدَ الشـفيع الذى يَأذَنُ لهُ بالشَّفـاعة لمنْ ارْتضيْتَ ، فَاشْـفَعْ اللهُمَّ لنَا بصفات جَمـالكَ يَا غَفَّار ، عندَ صِفَات جَلالكمْ يَا قهَّـارُ ، فإنَّهُ لاَ مفزعَ منْكَ إلاَّ إليْكَ ، لأنهُ لاَ إلهَ إلاَّ أنتَ ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّم عـلى سيِّـدنا مـحـمـد وعلَى آله وصَحْبه أجْمعينَ .

* * *

دعاء الإعانة

بِسْمِ الله ، أَحْـمدُه وأستـعينُه ، وأُصلِّى وأُسلِّـم علَى خَيْر خَـلْقه سَيِّدنَا مُحمد .

اللهُمَّ أنتَ القَـوىّ فَأعنَّا بقُـوَّتكَ، لنَأخُذَ مَـا آتيْتنَا من طَـاقة أداةَ عِـمَـارة حَـضَـارة حـتَّى تكونَ لنَا مَنَاعـةٌ من وَافـدات الإلْحَـاد وجَرَائيمِ الفَسَاد .

وصَلَّى اللهُ وسَلَّم على سَيِّدنا محمد وعلَى آله وصَحْبه أجْمعينَ .

* * *

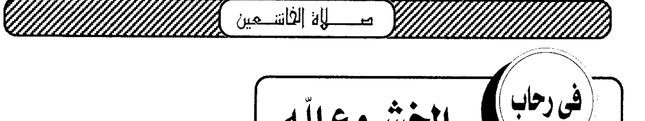
اللهُمَّ رَبَّ هَذه الدّعْوة التَّامَّة والصَّلاة القَائمة ، آت سيِّدنا مُحمّداً الوسيلَةَ والفَضيلة والدَّرجةَ العَالية الرَّفيعةَ ، وابْعثْهُ اللهُمَّ المقَامَ المحمودَ الذى وَعدتَّه .

أحمدُكَ ربِّى عَلى نعمة الإيمان بكَ ، وشَرَف الإسْلاَم لَكَ ، وأُصلِّى وأُسلِّم عَلَى خَاتَم رسُلكَ وخَاتَم أنبيائكَ سَيِّدنَا مُحمدَ أذن الخير التى استَقْبلتْ آخرَ إرسَال السَّماء لهَدى الأرْض ، ولسَان الصِّدْق الذى بلَّغ عن الحقِّ مُرادَهُ منَ الخَلق .

سُبْحانكَ تفضَّلْتَ بالتكْليف ، وتفضلْتَ بالمَعُونة ، فَأنتَ المتفضِّل أولاً ، وأنتَ المتفضِّل آخراً .

وصَلَّى اللهُ وسَلَّم على سيِّدنا ومَوْلانَا مُحمد وعلَى آله وصَحْبه أجْمعينَ .

* * *



في رحاب الخشوع لله

معنى الخشوع :

الخشوع هو الخضوع لمن ترى أنه فوقك بلا منازع ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وهو الذى خلق ووهب وأوجد من العدم وقول الحق :

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

يلفتنا إلى أن مطلوب الإيمان شاق ، ويحتاج إلى ضرورة الاستعانة بالصبر والصلاة ، لأن المسألة ليست سهلة ، بل تحتاج إلى جهد ، فالصبر معناه حمل النفس على أمر صعب ، وكل مؤمن يدخل منهج الإيمان محتاج إلى الاستعانة بالصبر ، ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه وليمنع نفسه من الشهوات التى حرمها الله سبحانه وتعالى.

وقد فسر بعض العلماء الصبر بأنه الصيام وما يتبعه من مشاق ، وسياق الآية كان يقتضى أن يقال (وإنهما) ولكن قال الحق (وإنها) فهل المقصود الصبر أم الصلاة ؟

ونقول : إنه عندما يأتى أمران منضمان إلى بعضهما فإن الأمور لا تستقيم إلا بهما كما جاء فى قول الحق :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ذلك لأن الله ورسوله يلتقيان على حق واحد وليس لكل منهما حق وقول الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾

(سورة الجمعة)

حيث إن التجارة واللهو فى وقت الصلاة عمل واحد ، وهو شغل المؤمنين عن العبادة والذكر .

والصبر والصلاة فيهما مشقة على النفس يبعدها عن نعيم الدنيا وزخرفها والصلاة تحارب استكبار النفس ، لذا فلا يتم الصبر بلا صلاة ولا تتقن الصلاة إلا بالصبر .

والخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ومدى ضآلة الإنسان أمام خالقه ذلك لأن الإنسان يعيش فى عالم من الأغيار ولذا يجب أن يخشع الإنسان للذى لا يتغير . والذين يتغيرون بالأسباب نقول لهم: اخشعوا لواهب الأسباب وخالقها ، واعلموا أن الأيام دُوَلٌ ، فقوى اليوم ضعيف الغد ، ألم يقل الحق :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) ﴾

(سورة آل عمران)

وعليه فالخشوع لا يكون إلا لله ، والخاشع هو الطائع لله. الممتنع عن المحرمات الصابر على الأقدار المتيقن أن الأمر كله لله وحده وليس لأى قوة أخرى وهذا ما يؤكده قول الحق أيضاً :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)

(سورة البقرة)

وقد سئل الإمام على رضى الله عنه عن حق الجار فقال: تعلمون أنك لا تؤذيه قالوا نعم.. قال وأن تصبر على أذاه ، وقول الحق (مع الصابرين) هنا أى يطلب منك الحق أن تواجه الحياة فى معية الله . والأحداث ، لا تملأ الناس بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم والذى يعيش فى معية ربه وحضانته لا يجرؤ عليه شيطان ، لأن الشيطان بطبعه خناس ولا يستطيع أن يدخل مع الله فى معركة ، ولكنه يدخل معاركه مع من يبتعدون عن منهج الله من الناس .

إذن لا بد أن نعشق الصبر ، لأنه يجعلنا دائماً فى معية الله ، وإن هذه الآية لا تجعل الإنسان ييأس مهما لقى فى حركة حياته من مشقة .

الصلاة أهم أركان الإسلام :

لو نظرنا إلى أركان الإسلام الخمسة ، نجد أن المسلم قد يؤدى بعضها ولا يؤدى البعض الآخر .

إذن فهناك فرق بين أركان الإسلام وأركان المسلم ، فالمسلم الفقير الذى

لا يجـد الضـروريات تسـقط عنه الزكـاة ، ويسـقط عنه الحـج والمسلم المريض مرضاً مزمناً يسقط عنه الصوم وإذا كان مريضاً وفقيراً سقط عنه الثلاثة أركان . ولم يبق له من الأركـان إلا شـهادة أن لا إله إلا الله وأن مـحـمداً رسـول الله ، وهــذه يكفى أن يقولها فى العمـر مرة ، ويبقى ركن إقامة الصـلاة وهذا الركن لا يسقط أبداً ، لا فى الفقر ولا فى الغنى ولا فى الصحة ولا عند العجز .

لذا كانـت الصلاة هى الفارقـة بين المسلم وغيـر المسلم ، وهى عمـاد الدين وهى تتكرر فى الـيـوم خمـس مـرات ، لإعلان دوام الـولاء لله ومن ثم كـانت الصلاة أهـم أركان الإسلام ، ليس لـهذا السبب سـالف الذكر فـقط ولكن لأن الصلاة أيضاً تشمل كافة الأركان ولكن كيف هذا ؟

إننا نعلم أن كل صلاة إنما تضم كل أركان الإسلام ، فـفى كل صلاة نشهد أن لا إله إلا الله وأن مـحـمداً رسـول الله، وكل صـلاة فيـهـا زكاة لأن الزكـاة إخـراج بعض المال للفـقـراء ، والمال يأتـى من العـمل والعـمل يحـتـاج لوقت والصلاة تأخذ بعض وقـتك الذى يمكن أن تستخدمه فى العـمل ، ليعطيك رزقاً تزكى به ، فكأنك وأنت تصـلى أعطيت بعض مالك لـله تبارك وتعـالى . فكأن الصـلاة فيها زكاة الوقت .

ونأتى بعـد ذلك للصـوم وأنت فى الصوم تمتنع عن شـهـوة البطن وشهـوة الفـرج لبـعض الوقت ، وكذلك فـى الصلاة ، كـمـا أنك لا تسـتطيع أن تأكل أثناء الصـلاة ، ولا أن تقتـرب من زوجـتك ولذا أنت بالصـلاة تكون فى دائرة أوسع من الإمساك بالنسبة لشهوتى الفرج والبطن ، لأنك ممنوع من الحركة وممنوع من الكلام .

فإذا جئنا إلى حج بيت الله الحرام ، نقول : إنك ساعة تصلى لا بد أن تتجه إلى بيت الله الحـرام وتتحرى القـبلة ، إذن : فكأن بيت الله الحرام الذى يقـصده

الحجيج يكون فى بالك وفى ذكرك وأنت تتجه إليه فى كل صلاة .

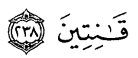
وعلى ذلك فقد جمعتْ الصلاة أركان الإسلام الخمسة كلها ، ولذلك قال رسول الله فيما يرويه سيدنا عمر رضى الله عنه (إن الصلاة عماد الدين) ولذا فإن من أقامها فقد أقام الدين .

ومن عجائب ترتيب آيات القرآن أنك تجد أن الصلاة مقرونة دائماً بالزكاة لأن الزكاة بالمال والصلاة بالوقت ، ونحن محتاجون إلى الوقت لنعمل فيه حتى نأتى بالمال الذى نزكى به .

ومن ثم كانت الصلاة هى أهم أركان الإسلام ، التى تجمع كل أركان الإسلام لبعض المسلمين الذين تسقط عنهم بعض الأركان ، لمرض أو فقر ، ومن هنا تتجلى عظمة الصلاة . .

الصلاة..والصلاة الوسطى

إن المحافظة على سائر الصلوات الخمس هو مقصود كل مؤمن ، أما ما جاء فى قول الحق :



حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

(سورة البقرة)

فنفهم أن المقصود فى هذه الآية هى الصلوات الخمس : فما المقصود بالصلاة الوسطى؟

ساعة يأتى خاص وعام مثل قوله تعالى :

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

(سورة نوح)

فكم مـرة دخل الأب والأم هنا ، مـرة عند قول الحق (اغـفـر لى ولوالدىّ) والثانية فى (ولمن دخـل بيتى مؤمنا) والثالثة (وللمـؤمنين والمؤمنات) إذن: إيجاد عام بعد خاص ، يعنى أن يدخل الخاص فى العام فـيتكرر الأمر بالنسبة للخاص تكراراً يناسب خصوصيته .

وقول الحق (حافظوا علـى الصلوات والصلاة الوسطى) تعطى ذلك المعنى فإذا سألنا: ما معنى حافظوا؟ فالحفظ يقابله النسيان أو التضييع والاثنان يلتقيان، فالذى حفظ شيئاً ونسيه فقد ضيعه ، وكلها معان تلتقى فى فقد الشئ ، والحفظ معناه أن تضمن بقاء شىء كان عـندك كحفظ القرآن ، أو رزقت بمال فلا بد أن تحافظ عليه .

(وحـافظوا على الصلوات) مـعناه لا تضـيعـوها ، خـاصة لمن ذاق حـلاوة التكليف بالـقرب من اللـه ، وأدى ذلك للتـمسك بهـا والمحـافظة عليـهـا وهذا بالنسبة للصلوات الخمس.

أما قول الحق (والصلاة الوسطى) ذكـر للخاص بعد العام، فكأن الله أراد المحافظة على الخاص مرتين ، مرة داخل دائرة العموم (الخمس) ، ومرة أفردها الله بالخصوص وهى الصلاة الوسطى وما الصلة ؟

إن وسطى هى تأنيث (أوسط)، وهى أمـر بين شيئين على الاعـتدال أى أن الطرفين مـتـساويان ، ولا يتـم ذلك إلا إذا كان عـدد الصلوات وتراً ، لأن عـدد

الصلوات لو كانت زوجية لما عرفنا الوسطى فيها ، ووسط الخمس أى التى يسبقها صلاتان ويعقبها صلاتان، أى يسبقها الأول والثانى ويعقبها الرابع والخامس .

فإذا كان الاعتبار بفرضية الصلاة، فإن اول صلاة مفروضة هى صلاة الظهر، وبعدها العصر، فالمغرب فالعشاء، فالفجر، وعليه تكون الوسطى بتشريع الصلاة هى المغرب وهو رأى يقول به الكثير من العلماء .

وإن أخذت الوسطى بحسب عدد الركعات ، فهناك صلاة قوامها ركعتان كالفجر ، وصلاة قوامها أربع ركعات كالظهر والعصر والعشاء ، وصلاة من ثلاث ركعات كالمغرب ، والوسط هنا يكون الصلاة الثلاثية وهى المغرب .

وإن أخذتها بالنسبة للنهار ، فالصبح أول النهار والظهر بعده والمغرب والعشاء ، فالوسطى هنا هى العصر .

وإن أخذتها على أنها الوسط بين الجهرية والسرية فيحتمل أن تكون هى الصبح أو المغرب لأن الصلوات السرية هى الظهر والعصر والجهرية هى المغرب والعشاء والفجر ، وبين العشاء والظهر تأتى صلاة الصبح ، وبين العصر والعشاء تأتى صلاة المغرب .

وإن أخذتها لاجتماع ملائكة طرفى النهار ، فتكون صلاة العصر والصبح ، إذن فالوسط يأتى من الاعتبار الذى تُحسب به إذا كان عدداً أو تشريعاً أو عدد ركعات أو سرية أو جهرية أو حسب نزول الملائكة ، وكل اعتبار من هؤلاء له حكم .

ولماذا أخفى الله ذكرها عنا؟ نقول: أخفاها ليعلمها غاية العلم ، ولنعلم أن هناك فرقاً بين الشىء لذاته والشىء المبهم فى سواه ، ليكون كل شىء هو الشىء ، فيؤدى ذلك إلى المحافظة على جميع الصلوات .

فإبهام الشيء إنما جاء لإشاعة بيانه ، ولذلك أبهم الله ليلة القدر لنهتم بكل الليـالي ، وبدل من أن تكون ليلة قـدر، تصبح ليـالي قـدر، وكذلك أبهـمنا في الموت كي يعلمنا به غاية العلم.

ويريد الحق أن نقـوم لكل صلاة ونحن قـانتـون ، والقنوت في اللغة مـعناه المداومة على الشيء ، حـتى أثناء الحروب ، كـما أن الصلاة واجـبة على الدوام حتى ولو كان الإنسان سائراً على قدميه أو راكباً .

صلاة الحرب والخوف وقصر الصلاة بالكتاب الموقوت :

لأهمية الصـلاة نجد أن الحق يحذرنا من أن يشغلنا عنهـا أي شاغل ، حتى ولو كـانت الحـرب ، بل بالعكس فـفي الحـرب يكون أولى بـالمسلم أن يلتـحم بمنهج الله وكذلك عند السفر شرع الحق لنا قصر الصلوات :

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

(سورة النساء)

والضرب في الأرض مقصود به: أن يمشي المؤمن في الأرض بصلابة وعزم وقوة ، والقصر في الصلاة: هو اختزال الكمية العددية لركعاتها ، وهو أن يؤدي المؤمن كلاً من صلاة الظهر والعصر والعـشاء ركعتين ، بدلاً من أربع ركعات ، أما الصـبح والمغـرب فكـلاهما على حـاله ركعـتان وثلاث ركعـات ، وحكمة ذلك أن الصلاة وقت الحرب تقتضي ألا ينشـغل المقاتلون عن العدو ولايفرطوا

أيضاً فى صلاتهم .

فإذا شرع الله للخوف صلاة وللحرب صلاة ، فمعنى هذا أن لا سبيل أبداً لأن ينسى العبد المؤمن إقامة الصلاة، وصلاة الحرب أو الخوف جاء بها القرآن ، أما صلاة السفر فقد جاءت بها السنة ، وفيها يقصر المؤمن صلاته أيضاً ، ولو رأى الكافرون المؤمنين مصفوفين جميعاً فى الصلاة فقد يهجمون عليهم هجمة واحدة ، ولذا شرع الله صلاة الخوف وقصر الصلاة .

ثم يأتى الخطاب فى الآية التالية موجهاً للرسول ﷺ :

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

(سورة النساء)

هذا وقد صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف بهيئات متعددة، فكان يقسم

الجيش إلى قسمين، قسم يصلى معه وقسم يرقب العدو ، ويصلى بكل فرقة ركعتين .

أو يصلى بكل فرقة ركعة ثم يسلم بعد صلاة الفرقة الأولى الركعة الاولى تخرج ، وتأتى الثانية ، فيصلى الركعة الثانية ، وتنتهى الصلاة، ثم تكمل كل منهم الركعة الأخرى ، ويكون الكل نال شرف الصلاة خلف النبى ﷺ ، وهناك كيفية ثالثة، وهى أن تبدأ الطائفة الأولى الصلاة مع النبى ﷺ بركعة ، ثم يتوقف النبى ﷺ بعد الركعة ، دون أن يسلم وتكمل الطائفة الأولى صلاة الركعة الثانية ، وتخرج من الصلاة ، ثم تأتى الطائفة الثانية لتصلى مع النبى ﷺ الركعة الثانية ، ثم ينتظر النبى ﷺ إلى أن تأتى الطائفة الثانية ، بالركعة الثانية ويسلم ، فتنال الطائفة الأولى شرف بدء الصلاة مع الرسول ﷺ وتحظى الطائفة الثانية بشرف السلام معه ﷺ .

وهنا نسأل: هل هذه الصلاة مقصورة على عهد النبى ﷺ وخاصة به لأن الصلاة معه هى الشرف؟ إذن فكيف يصلى المقاتلون الخوف بعده؟

يقول العلماء: إذا كان القائمون بأمر القيادة خلفاء رسول الله ﷺ فى الولاية ، تقام صلاة الخوف كما جاءت فى القرآن ، ولكن إذا كان لكل جماعة إمام فلتصل كل جماعة صلاة القصر كاملة خلف الإمام ذلك لأن الإمام الأعلى قد صعد إلى الرفيق الأعلى .

إن الصلاة كانت كتاباً موقوتاً :

إن المؤمن مطالب بألا يُسوف ويؤخر الصلاة عن وقتها ، وأن يذكر الله قائما وقاعداً وعلى جنبه وأن تكون الصلاة دائما فى بؤرة شعوره لذا ينبهنا الحق سبحانه إلى ذلك :

أى أن الصلاة لها وقت ، ولا يصح أن يفهم الناس كما قد يفهم البعض أن صلاة الظهر مثلاً ممتدة إلى العصر، هذا صحيح إذا عاش الإنسان إلى العصر وصلى الظهر قبل العصر، لكن ماذا يحدث لو مات الإنسان ولم يُصلِّ الظهر؟

إذن فقد أثم العبد ، ومن يضمن حياته حتى يؤدى الصلاة مؤجلة عن موعد أدائها ؟!

وقد يقول قائل: ماذا لو جاء وقت الصلاة وأنا أقوم بعمل هام مثل إجراء جراحة مثلاً ؟ نقول لمثل هؤلاء: أسألكم بالله ماذا تصنعون أثناء هذا العمل الذى تتخيل أنك غير قادر على تركه إذا اضطرتكم الحاجة إلى قضاء الحاجة والذهاب إلى دورة المياه فماذا تصنعون ؟!

ألا يوجد لكم مساعدون ، إن الله لا يكلف العبد شيئاً ليس فى سعته إطلاقاً .

فإذا كان رئيس العمال ولله المثل الأعلى، يقوم بتوزيع العمل على العمال بما يسع وقت كل عامل منهم فما بالنا بالرب الخالق، ولذا يقول الحق :

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ (سورة النساء)

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ (سورة الطلاق)

فالصلاة رزق عبودي يحررك من أي خوف ، وفضلها لا حدود له ، لأن فارضها هو الخالق المربى ، فكيف تبخل على نفسك أن تكون موصولاً بربك ؟!

فضل الصلوات وصلاة الجمعة :

إن فرض الصلاة يُعد مكرمة لأمة محمد ﷺ ، وإذا كانت كلمة الصلاة لغة تعنى الدعاء، وهذا ما نبهنا إليه الحق فى الحديث القدسى (من أحدث ولم يتوضأ فقد جفانى، ومن توضأ ولم يُصلِّ فقد جفانى ، ومن صلى ولم يدعنى فقد جفانى ، ومن دعانى ولم أجبه فقد جفوته، وأنا لا أجافى عبدى المؤمن) .

ولذا نبهنا الرسول ﷺ أن اقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد، وإذا كان السجود مظهراً من مظاهراً الذلة والخشوع والخضوع لله ، بالسجود هذا تكون أقرب ما تكون إلى ربك ، كما علمنا الرسول ﷺ ، وهنا يقول طاهر أبو فاشا رحمه الله كلاماً طيباً :

يا إلهى شاقنى هذا الوجود تلك دنياك فما بال الخلود

قدرى بك فى ذل السجود أنت إن ترضى كفانى مغنماً

ولاهمية الصلاة ، نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر رمق فى حياته ، وقد أخذت الصلاة اهميتها فى التشريع ، على قدر اهميتها فى التكليف ، وكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحى إلا الصلاة ، فقد جاءت بالتكليف المباشر بين محمد وربه عند سدرة المنتهى ، فقد استدعى الحق رسوله ﷺ إليه ليعرض عليه الصلاة، وهذه اللفتة من ربنا تبارك وتعالى تعد تحية لأمة محمد ﷺ حيث شرعت الصلاة من مقام القرب قرب محمد من ربه .

لذلك جعل الله الصلاة المفروضة فى القرب وسيلة لقرب أمة الرسول ﷺ جميعاً ولذا فهى الباقية .

ويحكى أن الإمام علياً - كرم الله وجهه ورضى الله عنه - سأل بعض الصحابة : أى آية فى كتاب الله أرجى عندكم ؟

فقال البعض :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ (سورة النساء)

وقال البعض :

وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾

(سورة النساء)

وقال البعض :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ (سورة الزمر)

وقال البعض :

وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

(سورة آل عمران)

فقال الإمام على : كل ذلك حسن ولكن ليست هى .

وصمت القوم وأحجموا ، فقال الإمام : ما بالكم يا معشر المسلمين لم سكتم ؟ فقالوا : لا شيء وهكذا جعل الإمام القوم فى شوق لمعرفة تلك الآية فاشرأبت أعناقهم ، وأرهفوا السمع ، فقال الإمام : لقد سمعت حبيبى رسول الله ﷺ يقول : أرجى آية فى كتاب الله هى قول الحق سبحانه وتعالى :

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ (سورة هود)

يا على إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتـتساقط عن جوارحه ذنوبه فإذا أقبل على الله بوجهـه وقلبه لا ينفتـل (أى لايلتفت) إلا وقد غـفر الله له كل ذنوبه كيـوم ولدته أمه ، فإذا أحـدث شيـئاً بين الصلاتين فله ذلك ، ثـم عد الصلوات الخمس واحدة واحدة ، فقال : بين الصـبح والظهر، وبين الظهر والعصر ، وبين العصر والمغرب ، وبين المغرب والعـشاء ، وبين العشـاء والفجـر ، ثم قال ﷺ : (يا على إنما الصلوات الخـمس لأمتى كنهـر جار ببـاب أحدكم ، أو لـو كان على جسـد واحـد منكم درن ثم اغتسـل فى النهر ، أيبقى على جسده شىء من الدرن ؟ قال : فذلكم والله الصلوات لأمتى) .

ولذلك لو نظرنا إلى الأعـمال لوجـدنا كل عـمل له مجـاله فى عمـره إلا مجال الصلاة فمجالها كل عمر الإنسان .

كما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، كما جاء فى قول الحق :

ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(سورة العنكبوت)

صلاة الجمعة لاستدامة الولاء الجماعى :

إن إقامة الصلوات الخـمس إعلان بدوام الولاء الإيمانى لله كل يوم خمس مـرات، ولكن الله لم يلزم الإنسـان بتـرك العمل إلزامـاً واضـحاً إلا فى صـلاة الجمعة، ليؤديها الإنسان مع الآخرين علانيـة ووضوحاً واجتماعاً ليرى الإنسان

فضل وجوده فى مجتمع إنسانى متساو فقال الله :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ (سورة الجمعة)

لأن الله لا يريد استدامة الولاء الفردى فقط ، وإنما يريد استدامة الولاء الجماعى. لأن الولاء الجماعى هو إعلان من كل إنسان بالعبودية لله أمام بقية مخلوقات الله .

وحينئذ ينقطع من البشرية مظهر استعلاء إنسان على إنسان.. لأن الضعيف منا فى الجاه أو المال أو النفوذ أو أى مظهر من مظاهر الحياة الخارجية، فى هذه الصلاة يرى هذا الضعيف القوى عنه مساوياً له فى سجوده لربه وهنا يتلاشى مظهر التعالى بين البشر، لذا يلزمنا الله أن نعلن العبودية له جماعة كل أسبوع مرة وهو يوم الجمعة تذكيراً بعظمة الخالق الحق .

لأن الإنسان عرضة أن يغفل إذا مر عليه أسبوع ، وهذه الغفلة قد تقوده إلى العلو أو الاستكبار من القوى على الضعيف ، وهذه الغفلة قد تعكس انحدار الضعيف إلى مزيد من الضعف وتعكس انزلاق القوى إلى وهم أنه أكثر قوة .

لذا فصلاة الجمعة تذكير بعبودية الجميع قوى وضعيف ، فيشعر الإنسان بالمساواة مع كل البشر. ثم يقود إلى قول الحق (وذروا البيع) أى اتركوا البيع ولماذا لم يأت الحق بالشراء ؟

ذلك لأن البيع دائماً يكون أهم أركان الصنعة التى تحقق الربح ، أما فى الشراء فإن الإنسان يعيش بالشراء موقفاً غير محبب إلى نفسه لأن فيه غُرْماً ، بل إن المشترى قد يبحث عن سبب لكى لا يشترى ، وكذلك لم يقل الحق لنا اتركوا الزراعة أو الصناعة لأن حصيلة هذه الأشياء لا تظهر إلا بعد وقت طويل .

أما الصفقات التجارية فتظهر نتيجتها فوراً ، لذا كان المنع من البيع ، وهكذا نرى أن ترك البيع والسعى لذكر الله من أجل هدف واضح هو تجديد الولاء الجماعى لله سبحانه وتعالى ، يجعل كل فرد فى المجتمع يحس بالعدل ، فيحقق المجتمع الاستطراق أى مساواة أقدار الناس واحترام كل إنسان لنفسه ولمن حوله ويلغى التعالى أو الكبر أو استذلال القوى للضعيف ، أو خنوع الضعيف أمام القوى ، كلنا متساوون أمام القوى المتعال .

أليس من الاطمئنان أن يسرع الإنسان إلى الانتماء إلى نوعه الإنسانى لحظة الصلاة .

الفهـرس